دانتى مارياناتشى

المقهى المجرى

ترجمة: حسين محمود

نجلاء والى



سلسلة الإبداع القصصى

2883

المقهى المجرى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2883
- المقهى المجرى
- دانتى مارياناتشى
- حسين محمود، ونجلاء والى
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:

Caffè Hungaria
By: Dante Marianacci

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

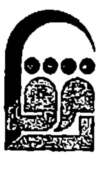
المقهى المجرى

(رواية)

تـــألـــيـــف : دانتى مـــاريـاناتشي

ترجـــــمـــة: حـــسين مــحــمــود

نجـــــلاء والـى



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مارياناتشي، دانتي .

المقهى المجرى / تأليف : دانتي ماريانانش، ترجمة: حسين محمود،

ماجدة العناني.

ط١، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦

٢٤٠ ص ، ٢٠ سم

١ - القصص الايطالية.

(أ) محمود ، حسين (مترجم)

(ب) والى ، نجلاء (مترجم مشارك)

(جـ) العنوان ٨٥٠

رقم الإيداع ٢٢٦٠٣ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى 978-977-92-0451-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الرواية هى التاريخ الخاص بالأمم.

بلزاك

يا لسعادة هنغاريا، إن لم

تسمح بأن تُسَامَ الهوان.

دانتي

الفصل الأول

جلست السيدة اللطيفة إلى منضدة صغيرة في مقهى نيويورك الذى تم تجديده حديثاً، أمام إدواردو، ترتشف فنجان الشاي بنكهة الخوخ، كانت ذات وجه مستدير، متورد، ممتلئ هادئ، تتدفق منه الصحة والحيوية.

كانت يداها المنمقتان تكشفان عن عنايتها بهما، وكانت مهندمة الملابس، وكانت تبتسم بلطف كاشفة عن أسنان بيضاء بين شفتيها اللتين حددهما جيداً أحمر الشفاه، لم يكن يشي بسنوات عمرها سوى تسريحة شعرها الرمادي المصفف بطريقة البرماننت كأنها خارجة لتوها من محل الكوافير، ويدفع من يراها للتفكير في زمن بعيد مثل تلك الصور الكثيرة التي كانت جميعها تقريبًا من الأبيض والأسود والتي شاهدتها في ذلك الصباح بالمعهد الثقافي الإيطالي.

المعهد يقع في قصر تاريخي، كان مقرا لأول برلمان مجري في شارع برودي ساندور، وقد شهد هذا المكان أحداثًا كثيرة.

توقفت أمام كل صورة ترتسم على وجهها تعبيرات مختلفة؛ وتلقي بنظرة محدقة باحثة بين الجمع البادي في الصورة عن وجوه تعرفها ... وجوه أصدقاء أو أعداء، تتبدل نظرتها من الحب إلى الغضب، من البهجة إلى الحزن. ظل وجهها أمام بعض الصور متبلداً، دون أي تغيير، كما لو كان الحلم الذي التحم بالذكرى قد حملها بعيداً في تلك اللحظات. كثير ممن حبستهم عدسات بعض المصورين الغربيين الشجعان من الميادين، ومن الشوارع، وفوق الجسور وفي الحدائق العامة وفوق العربات المصفحة، وخلف النوافذ لم يعد لهم وجود.

على أي حال، بعد مرور خمسين عامًا، فإن من نجح منهم في الهروب من السجن ومن قسوة التنكيل وهرب إلى الخارج بعد مضي كل هذه المدة، بالتأكيد انتقل إلى الحياة الأبدية.

تعرفت جبرييلا على نفسها في إحدى الصور. كانت تستقل حافلة من حافلات الإذاعة، يحيط بها جمع من الشباب، بينما تقرأ ورقة أمام الميكرفون.

تلألأت عيناها فجأة وذرفتا دمعتين فوق الورقة.

كانت لا تزال شابة. روت ذلك بنبرة غواية في صوتها.. فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، مفعمة بالحيوية، كانت تعمل منذ سنوات قليلة، وليس فقط لأنها تنتمي إلى عائلة متواضعة.

إدواردو الجالس أمامها وقد بدا هادئًا، إلا أنه في الحقيقة كان شديد الانتباه لكل ما تقوله، وقد بذل جهدًا غير عادي بالنسبة إليه، ليسجل في ذهنه كل حركة، كل كلمة، حتى نبرة صوتها. كان أبو جبرييلا سجينًا سياسيا، ولم يكن يسمح لأولاد السجناء السياسيين بالدراسة بالمدارس الحكومية العادية، هكذا بدأت جبرييلا في العمل بوظائف مؤقتة لكسب رزقها، وقد التحقت أيضًا بدورة مسائية في فن تصميم الملابس، وأخيرًا وجدت وظيفة ثابتة في مصنع بمدينة «أوبدا» في أطراف المدينة، كان ذلك في اليوم الأول من شهر أكتوبر بداية ما حدث عام ١٩٥٦، واليوم نفسه الذي انتقلت فيه للعمل بمصنع آخر للخزف بمدينة «كوبنيا».

والصورة التي عرفت نفسها فيها وجعلتها تبكي قليلاً وتبتهج في الوقت نفسه، كانت قد التقطت لها في ٢٣ أكتوبر عام ١٩٥٦، يوم اندلاع الثورة، كانت قد عادت لتوها من «كوبنيا» ونزلت من الترام بمحطة «أوتيل أستوريا»، لم تكن تقطن في ذلك الحي، ولكنها كانت قد التحقت لتوها بدورة بمعهد «أليانس فرانسيه» الذي كان يبعد خطوات قليلة عن الفندق. كان فندق «أستوريا» يقع بالقرب من متحف «كورت» وطريق المتحف القومي وشارع «كوزا»، كان فندقًا مشهورًا يتشابك تاريخه مع تاريخ المدنية، بل والأمة كلها، وقد مر به الهايسبورج والروس والنازيون، ثم عاد الروس مرة أخرى، وترك كل منهم أثرًا له،

وكان المثقفون المجريون يجتمعون عادة في مقهى الفندق كما يحدث في المقاهي الأخرى للمدينة .

وقد نزل به إدواردو وأعجبه جمال المكان وأناقته، التصميم الداخلي الفخم والرخام والسجاجيد الفاخرة، وشمعدان الكريستال، والمرايا اللامعة، والنوافذ ذات الزجاج الملون، بل والأعمال الفنية الموجودة في كل مكان. كان يشعر بعبق تاريخ أواخر القرن التاسع عشر، وكان اللون الأحمر القاني للحجرة يستدعي إلى الذهن «الأسلوب البروفنسي» ويختلف تمامًا عن أبهة المكان الجالسين به «مقهى نيويورك»، أشهر مقاهي بودابست، والذي كان يطلق عليه اسم مقهى المجر في أثناء الحكم الشيوعي، وهناك كان إدواردو ليمنتاتي يلتقي كبار الشخصيات.

كان إدواردو صافيًا وكاتبًا إيطاليًا في منتصف العمر؛ يحظى بشهرة لدى جمهور الإذاعة والتليفزيون عن طريق التقارير الصحفية التي ينقلها من إيطاليا ومن الخارج.

وأيضًا عن أحاديثه الصحفية والأحاديث المصورة عن كبار المثقفين والكتّاب الإيطاليين والأجانب وللتعاون المستمر مع الصحف والمجال الأسبوعية.

وبعد أن قضى جزءًا كبيرًا من حياته باعتباره مراسلاً خاصًا ومراسلاً حربيًا، وصل إلى بودابست، حيث كان يمتلك بيتًا هناك،

وقضى بها وقتًا طويلاً، لفترة نقاهة بعد مرض مفاجئ أصابه، وكان يفكر أيضًا في إصدار كتاب عن ثورة المجر عام ١٩٥٦، حيث ارتبط بعض أحداث من حياته بالذكرى الخمسين لما أطلق عليه واحدة من أكثر الصفحات الحافلة في تاريخ المجر.

كان ظهر يوم ٢٣ أكتوبر الدرس الفرنسي الثالث لجبرييلا، ولكنها لم تذهب. بمجرد نزولها من الترام، وجدت نفسها بين جمع غفير من الشبان والفتيات الموجودين في الصورة، كانوا يوزعون على الجميع منشورًا مصورًا، وقد كتب به أربعة عشر مطلبًا، ومنشورًا آخر به ستة عشر مطلبًا، وربما آخر أيضًا به اثنا عشر مطلبًا.

وما أعطي لجبرييلا كان يحوي أربعة عشر مطلبًا، وكانت الوثيقة قد أعدها في الليلة السابقة طلبة كلية الهندسة ببودابست. وكما عرفت جبرييلا بعد ذلك في الثالثة من ظهر الاثنين ٢٢ أكتوبر؛ احتشد أكثر من خمسة آلاف طالب في القاعة الكبرى لكلية التكنولوجيا بجامعة بودابست، الجامعة التي كان يتخرج فيها معظم العلماء والمهندسين بالمجر، في تلك الجامعة لم يتصادف من قبل أن احتشد كل هذا العدد الكبير من الطلبة والأساتذة. في بادئ الأمر اجتمع الطلبة لتقرير ما إذا كان من المناسب ترك الجمعية الشيوعية للطلبة وإقامة مؤسسة مستقلة. وبمجرد اتخاذ القرار، ركزت الجلسة على كتابة وثيقة أصبحت بعد ذلك من الوثائق التاريخية (وثيقة الستة عشر مطلبا) والتي تحولت فيما بعد إلى المنشور الرسمي للثورة. قرر الطلبة في أثناء الجلسة الإعلان عن

مظاهرة في اليوم التالي لتأييد البولنديين. بالطبع كانت حجة، وكان القصد من المسيرة تمثال جوزيف بيم، لواء بولندي سقط بجانب المجريين في أثناء ثورة ١٨٤٨ ثم أعدمه النمساويون.

وفي الناحية الأخرى من نهر الدانوب؛ اجتمع طلبة الكليات الإنسانية بالجامعة وقرروا بدورهم التظاهر. وقد تحددت الساعة الثالثة ظهراً موعداً لخروج المظاهرتين، إحداهما من مدينة «بودا»، والأخرى من مدينة «بست» لتلتقيا بعد ذلك بميدان «بيم»، وكان الهدف الوصول إلى الإذاعة الرسمية وقراءة بيان الثورة بها.

ظلت جبرييلا تستمع إلى الراديو طوال اليوم، في مقر عملها. كانت تعلم أن الطلبة قد تقدموا بطلب تنظيم مظاهرة تتجه إلى تمثال «بيم» تضامنًا مع ما يحدث في بولندا، حيث استطاعوا انتخاب جوميلك «الشيوعي الوطني»، كما اعتاد أن يسمى نفسه. كانت تعلم في اليوم السابق أن المسيرة تم منعها. في يوم الثالث والعشرين يبدو أن مطلب الشباب قوبل بالإيجاب. وقد ذكروا بالإذاعة أن الجمع سيتجه إلى الميدان، حيث يوجد أثر «بيم». وتذكر جبرييلا أنه في بادئ الأمر لم يكن الأمر مظاهرة حقيقية، وإنما مسيرة صامتة سلمية، كأنها احتفال.

عندما قرأت جبرييلا المنشور سريعًا، دهشت من طلبات الطلاب العقلانية الخالية من الكره والحقد. كانت تحكي التفاصيل بنظرة بدت حتى هذه اللحظة مستسلمة، بينما كانت تحتسي شايها المعطر. كان

الطلبة يطالبون بوضوحٍ برحيل القوات السوفيتية؛ لأن المجر كانت تتطلع إلى استقلالها منذ ألف عام. كانوا يطالبون بانتخابات حرة، تجرى بين أكثر من مرشح.

كان الطلبة، بل وكل المجريين، يتمنون أن يعيشوا أخيرًا دون تمييز ودون التكفير عن ذنوب ارتكبها آباؤهم.

كانوا يتطلعون مثل الشباب في أي بلد حر إلى السفر والقيام بتجارب جديدة. كانت الوثيقة تتحدث عن الصداقة المجرية - السوفيتية، والصداقة المجرية - اليوغوسلافية. وأيضًا هذا في رأى جبرييلا يعكس حكمة تلك المطالب، كانت تتفق معهم في تلك المطالب، بقيت بين الجمع، ثم تحركت معهم في اتجاه حدائق المتحف القومي الذي كان يبعد خطوات قليلة عن مطعم «أستوريا»، بالضبط أمام مبنى الإذاعة، ومرّوا أيضًا بشارع «برودي ساندرو» أمام المعهد الثقافي الإيطالي.

كان الطريق يعج بأشخاص كثيرين، يغنون النشيد الوطني وبعض أبيات الشعر من فوق سلم المتحف.

أخفت جبرييلا شعورها بالحرج بابتسامة، فلم تكن على علاقة وثيقة بالثقافة، كانت لا تزال شابة لم تنخرط في التعليم النظامي، كانت تعرف مثل غيرها من المجريين، أن الشاعر الكبير ساندرو بيتوفي- الشاعر الوطني المجري - قد أشعل ثورة ١٨٤٨ من فوق درجات ذلك

السلم ضد النمساويين عندما قرأ إحدى قصائده. كانت تحفظ تلك القصيدة عن ظهر قلب؛ لأن والدها كان يرددها دائمًا وهي طفلة:

هيا يا أهل المجر

بلادكم تناديكم

لبوا النداء أينما كنتم

أتريدون أن نكون أحرارًا أم عبيدًا؟

اختاروا المصير الذي تمليه عليكم أرواحكم ..

فهمت أن بينهم بالتأكيد كثيرًا من الكُتَّاب والشعراء من طريقة حديثهم، مما يقولونه ومما يرتدونه، لم تكن جبرييلا تعرف أي كاتب في ذلك الوقت، أما الأب فكان يعرف كثيرًا منهم وإن كانوا من غير المشهورين، كانوا جميعًا- وكما كان يقول - يقضون حياتهم في عمل متواضع، دائمًا في الظل.

كان يذكر دائمًا شاعرًا من تشيكوسلوفاكيا يعرفه، سد باب بيته في جزيرة «كامبا» بالطوب كي لا يغادره أبدًا، كان يتحدث أيضًا عن رجل قد نال شهرة واسعة في فترة الخمسينيات، وبالتأكيد لا يزال حيًا، وحثت إدواردو على مقابلته والحديث معه لأنه حسب زعمها يمكنه أن يخبره بكثير من المعلومات عن دور المثقفين في أثناء الثورة. أما هي فلا تشعر بقدرتها على القيام بهذا الدور، وإن عرف بيتها كل أعداد مجلة

«الأدب» الأسبوعية التي كانت تصدر عن اتحاد الكُتَّاب في تلك الفترة. تتذكر جبرييلا جيداً الليلة التي عاد فيها الأب ملوحًا بنسخة من المجلة التي نشرت قصة قصيرة لكاتب، تذكر فقط من اسمه «تامس، توماسو». كان في تلك القصة يتحدث عن سر إلا أنه كان سرًا ذائعًا يعرفه الجميع، بيد أن رؤساء الحزب لم يشاءوا قط تأكيد تلك المعلومة بين الناس، وهي أنه على ضفاف بحيرة «البلاتون» توجد قرية سياحية مخصصة لهم فقط. كانت تحيط بالمكان أسوار عالية وحواجز من الأسلاك الشائكة لا يمكن تخطيها وتحجبهم عن عيون المتطفلين.

وفور نشر تلك القصة فُصل مدير المجلة وأرسل للعمل في مصنع عقابًا له .. كان والد جبرييلا يرى أن ذلك إشارة على شيء مهم على وشك الحدوث. ففي وقت آخر كان مدير المجلة بعد نشر قصة مثل هذه يخاطر بالسجن والتعذيب، إن لم يكن بنهاية أسوأ. حدث ذلك وفقًا لرواية جبرييلا في نهاية عام ١٩٥٥؛ وقد سجل إدواردو الاسم واليوم الذي عثر فيه على اسم ذلك الكاتب.. كان يسمى تامس أكزال، وقد نشر في لندن عام ١٩٦٠ بالاشتراك مع تيبور ميراي كتابًا تحت عنوان «ثورة العقل». أراد إدواردو أن يصرح لها بالاسم في تلك اللحظة، إلا أنه أعرض عن ذلك كي لا يقطع خيط الحديث، وقد استطاع أيضًا العثور على الكاتب المسرحي الذي كان والدها يتحدث عنه، وقد حدد معه لقاء في اليوم التالي في «مقهى نيويورك» الذي كان يتردد عليه بانتظام، ويقضي به بضع ساعات كل يوم ليستعيد الأيام البطولية لذلك المكان..

وقد مر كثيراً بذلك المكان في أثناء أعمال الترميم بصحبة المهندس المشرف على العمل ومساعدته. يتذكر أيضًا أن المهندس كان يتوقف عند كل خطوة للحديث مع العمال وإعطاء التعليمات، يتذكر أيضًا أنه حبس مع المساعدة الجذابة في الجناح الذي كان يسمى الجناح الرئيسي والمخصص لاستقبال كثير من رؤساء الدول. نفخة رياح قوية أغلقت الباب الذي لم تركب مقابضه بعد، ووجد إدواردو نفسه حبيس الحجرة مع تلك الفتاة الفاتنة ذات الشعر الفاحم والعينين الناريتين وتلك الأرداف التي لم يرَ مثل جمالها من قبل يتأملان أباجورة ضخمة من زجاج الموران أزرق اللون.

كان الجناح مفروشًا بالكمال بأثاث يليق بالطبع لما خصص له. كان سرير كبير رائع من النحاس يتوسط الحجرة الواسعة التي لم يكن ينقصها سوى بعض اللمسات القليلة. حدق إدواردو في الفتاة ذات العينين النجلاوين وسألها بصوت خفيض: يا ترى من سيفتتح ذلك السرير؟ أجابت الفتاة: سأخبرك بلا شك، دون أن يبدو عليها أي اضطراب، فقط بنبرة ساخرة، وقد فهمت تمامًا ما يدور في خاطر إدواردو.

في أثناء ذلك، كان المهندس يطرق الباب كل حين ليطمئن البائسين المحبوسين بالداخل أن أحد العمال سيصل فوراً ومعه المفتاح. بالطبع إدواردو كان يتمنى ألا يصل العامل أبداً، كما في أسطورة أندريه آدي، الشاعر المجري الكبير الذي اتخذ من «مقهى نيويورك» – ولفترة طويلة –

مكانًا لإقامته، يُحكى عنه - كما عن مولنر - أنه استولى على مفتاح المقهى وألقى به في نهر الدنواب، قرأ إدواردو ذلك في كتاب قديم عثر عليه، يعود تاريخ نشره إلى الستينيات، يحكي عن كل المشاهير الذين كانوا يترددون على المقهى منذ أوائل القرن العشرين إلى نهاية الخمسينيات ومزود بالصور الملونة التصميمات، والتماثيل، واسكتشات تصور الشخصيات ووجوههم.

كان إدواردو يهتم بصفة خاصة بفرانس مولنر، مؤلف رواية «أولاد شارع بال»، وكان من أكثر المترددين على «مقهى نيويورك». في ذلك الوقت، غير المقهى اسمه وبقي منه قليل من ديكور وتماثيل المقهى القديم. أما إدواردو فقد نجح في تلك الفترة القصيرة التى حُبس فيها مع تلك السمراء المثيرة في الحصول منها على وعد بلقاء وإن لم تخبره باسمها.

لاحظت جبرييلا شرود إدواردو وتوقفت عن الكلام، اعتذر لها بعينيه وواصلت حديثها.

وفي ظهيرة يوم ٢٣ أكتوبر؛ شعرت جبرييلا بأريحية حقيقية واجتاحها شعور بالحماس ما لبث أن تحول إلى حماس جارف.

وعند لحظة معينة بدأ الجمع في إطلاق الشعارات: "حرروا الإذاعة، نريد تحرير الإذاعة، راديو المجر الحر".. فى تلك الفترة لم يكن قد بدأ البث التليفزيوني في بودابست، وكان الراديو هو الوسيلة

الوحـيـدة لتداول المعلومـات داخل المجـر وخـارجـهـا؛ عند ذلك شـعـرت جبرييلا بأن شيئًا خطيرًا على وشك الحدوث.

وجدت نفسها في الصفوف الأولى عندما وصلوا إلى مقر الإذاعة، وقد أقيم بجانبه استوديو مؤقت كان يعتلي سطحه، كما عرفت فيما بعد، بيتر إيردوس، وكان من المؤيدين لإيمرناجي السياسي سيئ الحظ الذي كان مرشحًا لتولي رئاسة الحكومة في الفترة الانتقالية، وكان عضوًا في مجموعة «بيتوفي». كان بيتر يمسك ميكرفونًا في يده، وقد أخذ يتحدث إلى الجمع الغفير، وأثناء تجمعهم أمام البوابة صاح أحدهم متسائلاً عن المنشـور ذي الأربعـة عـشـر مطلبًا، قـفـزت جـبـرييـلا إلى سطح الاستوديو، ولأنها كانت ترتدي معطفًا من الجبردين أحمر اللون لقبها الجميع بالفتاة ذات المعطف الأحمر.

أعطاها بيـتر إيردوس الميكرفـون، وقـرأت جـبـرييـلا النقـاط الأربع عـشرة، وبالطبع لم تكن الإذاعة مـباشـرة، وإنما كـان مـجـرد تسـجـيل إذاعي، وقد أدرك ذلك الحشد الذي تجمع في النوافذ وهم يستمعون إلى الراديو. وقـد حـاول بيـتـر تـهدئـتـهم، مؤكـدًا أنه بالفـعل تسـجـيل، ولكن الإذاعة المباشرة ستبث قريبًا.

وفي تلك اللحظات، بل قـبلهـا، في ذلك الوقت القـصـيـر الذي استغرقته الرحلة من المتحف الوطني إلى مقر الإذاعة، بدا الأمر كأنهم قد نسـوا العنف والقسوة اللذين عـانوا منهمـا سنوات طويلة وتملكتهم

روح جديدة، قوة خارقة ظهرت جليًا في تصرفاتهم وطريقة حديثهم، فقد شعروا بالفعل باقتراب لحظة الحصول على الحرية؛ لدرجة أنهم انتزعوا المطرقة والمنجل من العلم الوطني المرفوع في ميدان «بيم» وفور قراءة الوثيقة بدأ الجمع في الصياح: ليذهب الوفد إلى الإذاعة.

انتخبت جبرييلا فورًا رئيسة للوفد، وكان بصحبتها تسعة من الشباب. وقد التقت أحدهم بعد مرور خمسة وأربعين عامًا كان يدعى أربيد، وكان يبلغ في ذلك الوقت سبعة عشر عامًا، وكان الآخرون يفوقونه في العمر، وكان منهم من يبلغ نحو ثلاثين عامًا. وعندما فتح الباب أخيرًا ودخل الوفد ظل الباقون ينتظرون في مكانهم، وقد اصطفوا في نظام.

لم يُظهِر أي منهم عنفًا.. وعندما دخلوا سُجلت أسماؤهم وعناوينهم وتم اصطحابهم إلى مكتب مديرة الإذاعة.

كانت تتوسط الحجرة منضدة بيضاوية الشكل تحيط بها المقاعد. دخلت جبرييلا أولاً. وبعد أن جلسوا ظهرت مديرة الإذاعة بصحبة رجلين .. لم تستطع جبرييلا أن تخمن إن كانا من رجال البوليس السري. كانت مديرة الإذاعة سيدة في نحو الأربعين ذات شعر أسود فاحم، مهملة الهندام. لم تسمح بأي حديث عن تسليم المبنى، وكان ذلك مؤشرًا – كما ظنت جبرييلا – على حدوث تبعات خطيرة. استغرق الاجتماع نحو ساعتين، وكان يقطعه بشكل مستمر ذهاب مديرة الإذاعة

إلى غرفة أخرى، وقد عرفوا بعد ذلك أن بالحجرة التالية كان يجلس مساعد لمديرة الإذاعة على اتصال مباشر مع وزارة الداخلية، وكانت تتلقى التعليمات عن كيفية التصرف. لم تشأ مديرة الإذاعة تسليم المبنى للثوار، وهو ما قام به بعد ذلك بأيام قليلة بال مليتار عقيد الجيش الذي انضم إلى الثوار، وأصبح وزيراً للدفاع. كانت تلك المرأة تفكر في تلك الأثناء في شيء لم يكن من السهل التكهن به، ربما كما تعتقد أن جبرييلا كانت تريد فقط الانصياع لأوامر رؤسائها، والحقيقة أنها وجدت نفسها أمام عشرة شبان يحدثونها عن حقيقة ما يحدث في الشارع، عن رغبة الشعب. وعند حدٍّ معيَّن نفد صبرها وألقت إليهم بسؤال بدا مُهيناً بعد كل حديثهم الطويل: "في نهاية الأمر هل يمكن معرفة ماذا تريدون بالضبط؟".

كان المناخ المسيطر على الجلسة يكاد يكون كوميدياً، فقد جلس هؤلاء الشبان أمام مديرة الإذاعة كأنهم طلبة مشاغبون أمام مدير المدرسة. كانت تسيطر عليهم جميعًا- بمن فيهم جبرييلا - مشاعر الحماس والخوف في آن واحد. قطع أحد الشباب ذلك التردد، وقال بصوت حاسم: نريد عودة الإذاعة للشعب وأن تتم قراءة مطالبنا، ولن نغادر المكان قبل تحقيق ذلك.

لم تكن جبرييلا تتذكر بالضبط إجابة مديرة الإذاعة. أجابت بأنهم بالتأكيد ليسوا الشعب وأن شعار «الراديو ملك الشعب» لا معنى له.. «كيف يمكن للشعب إدارة الإذاعة؟».. ونطقت كلمة «الشعب» بسخرية

وتهكم، مشددة على حروف الكلمة! وأردفت قائلة، وهذا ما تتذكره جيداً جبرييلا: «إن الإذاعة ينبغي أن تدار بواسطة فنيين ومذيعين وغيرهما، ولا يمكن أن تتولى إدارتها مجموعة من الطلبة غير المؤهلين». وكانت السخرية واضحة في طريقة حديثها والإيماء برأسها. وعند ذلك طالب أحد الحاضرين بأن يتم فتح الميكرفونات وأن يسمع الناس ما يدور بالفعل في الغرفة.

وفي أثناء ذلك، تعالت الصيحات من الخارج تطالب بخروج وفد الطلبة إلى التراس، قاد أحد الطلبة جبرييلا إلى الشرفة، حيث قرأت المطالب الأربعة عشر. وأدرك المتظاهرون أن وفد الطلبة لم ينجح في مهمته. وبعد ذلك بقليل، في نحو الثامنة، ألقى رئيس الوزراء جيرو بياناً وصف بأنه مهين وأشعل فتيل الثورة.

وقد شاهد الطلبة من النافذة التي تطل على الفناء الداخلي أن عربة إسعاف قد توقفت ونزل منها عناصر من البوليس السري. وفي رأى جبرييلا كان عدد عناصر الأمن يفوق أعداد المتجمهرين خارج الإذاعة. حبس أعضاء وفد الطلبة في حجرتين منفصلتين ضيقتين، وقد تم تقسيمهم إلى خمسة في كل حجرة بعد تفتيشهم جيداً من قبل البوليس السري. كان أحد المخبرين يحمل ورقة بأسمائهم حصل عليها من بوابة الإذاعة. كان أرباد سريع البديهة وطلب من المخبر تقطيع الورقة، ثم فكر فى أنه من الأفضل حرقها. أخرج المخبر ولاعة من جيب البنطال وحرق الورقة التي تحوى أسماء وفد الطلبة.

أما جبرييلا فقد تم التعرف عليها عند قراءتها البيان، وتم الإبلاغ عنها. وبمجرد خروجهم من مبنى الإذاعة هرعت إلى مستشفى العظام لمساعدة الجرحى، حيث كانوا يستقبلون المتطوعين للتبرع بالدم.

عاشت جبرييلا في تلك الفترة أيامًا محمومة، كانت تعبر الجسور بالمدينة سيرًا على الأقدام لعدم وجود حافلات عامة. وذات صباح بميدان «كالفين»، اختبأت بمدخل إحدى العمارات، بينما كانت تنهال طلقات الرصاص، وانغرست رصاصة منها في وتد الباب بالضبط بجوار رأسها، ولكنها لم تشعر بالخوف، فتاة في عمر الثامنة عشرة عندما تؤمن ببعض المبادئ لا تشعر بالخوف.

وقد مات بين ذراعيها في مستشفى العظام جانوس، الفتى ذو العينين الخضراوين الذي أحبته، وكان ذلك من أسوأ ما مر بها.

وفي يوم ١٢ نوفمبر؛ كان البوليس السري يراقبها، واضطرت للهرب بسرعة.. لو كانت بقيت في المجر لأصبحت نهايتها محتومة؛ فقد تم الحكم بالإعدام على أشخاص بتهم أقل خطورة بكثير من التهم الموجهة إليها. علمت جبرييلا من والدها أن البوليس السري يبحث عنها، لم يكن معها شيء من ملابس أو مستندات أو حتى فرشاة للأسنان. تذكرت أنها في ذلك الصباح البارد من شهر نوفمبر، ذهبت إلى جزيرة مارجريتا، وظلت فترة تحدق في الدانوب، بينما كانت طيور النورس تحلق في مرح فوق سطح المياه، كانت تفكر في ذلك الشاب الذي لم يعد

له وجود. لحسن الحظ لم تكن الحدود قد أغلقت مع النمسا. في تلك الأيام كل قوات الجيش السوفيتي انتقل إلى بودابست لإخماد الثورة. وهكذا نجح كثيرون في عبور الحدود.. وإن كان قد تم القبض على بعضهم وتمت معاقبتهم بصرامة، والآخرون قتلوا في أثناء عبور الحدود. كانت جبرييلا أكثرهم حظاً، استطاعت الوصول إلى فيينا في الليلة نفسها، وهناك تقدمت إلى مكتب الهجرة شأن كل اللاجئين.

وعندما سئلت عن البلد الذي تريد اللجوء إليه تذكرت مطالب حقوق الإنسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩؛ وشعرت بالمثاليات الفرنسية.. وهكذا اختارت بشكل عفوي فرنسا ولحقت بأول قطار ليقلها إلى باريس.

الفصل الثاني

عندما اتصل مدير إحدى المجلات الأسبوعية الشهيرة بإدواردو، كان وقتها يعد بعض المذكرات عن رحلة قام بها منذ وقت طويل في اسكتلندا، وكان يفحص بعض الأجزاء من برنامج تسجيلي في أدنبرة، كان يحتاج إلى هذه الوثائق لإعداد كتاب جديد عن منكرات رحلات ولقاءات.

وكان قد قضى شهر أغسطس كله في العاصمة الاسكتلندية؛ لمتابعة مهرجان فرينج ومهرجان الآداب اللذين كانا يشتملان على المئات من اللقاءات التي جرت في غضون أسبوعين فقط.

نزل إدواردو بغرفة جميلة بفندق قريب من القنصلية الإيطالية في إحدى الطرق المتعرجة هلالية الشكل، والتي تحدث عنها مونتالي في إحدى قصائده. وفي الفيلم التسجيلي الذي تمت إذاعته ظهرت فيه ليست فقط شخصيات ثقافية بريطانية شهيرة، وإنما أيضًا كثير من الكتاب والشعراء وكُتّاب المسرح المشهورين الأجانب. نورمان ميلر كان آخر من استضافتهم الكاتبة الكندية التي فازت بجائزة بوكر والكاتب الأيرلندي الذي كان الجميع يشير إليه بوصفه امتدادًا لجويس.

وقد طلبت من الكاتبة الكندية استضافتها مع شاب اسكتلندي كاتب قصص بوليسية كان يمثل ظاهرة أدبية في ذلك الوقت.

وقد قام أيضًا بعمل حلقة عن فرقة المشاة العسكرية الأيرلندية مع كل الأعلام العسكرية مختلفة الألوان التي كانت تغزو ميدان القلعة، وقد أحاطت بهم هياكل خشبية عملاقة صممت خصيصًا بوصفها مقصورات لاستضافة الآلاف من المشاهدين. كان الجمهور مرحًا، يسرفون في شرب البيرة، وفي الغالب كانوا يقضون تلك الأمسيات في الأماكن التي تدخن فيها السجائر من المدينة أو يلتقون في الميادين.

وقد اصطحب إدواردو زوجته إلى أدنبرة، كان يأمل في استعادة حياته معها وأن يستعيد حبها، إلا أن حياتهما الزوجية كانت قد انهارت بالفعل.. أصر مدير المجلة على الطلب. كان يفهم تمامًا أن إدواردو قد هجر مهنة الصحافة تمامًا ولم يكن يريد قبول المهمة الجديدة، ولكنه كان معروفًا شخصيًا يطلبه منه بحق صداقتهما، لم يكن يهمه تحقيق صحفي يتعلق بالسياسة من وجهة نظر المثقفين، وإن بدا فصل السياسة عن الباقي بالأمر المستحيل، وإنما أراد منه - نظرًا لمعرفته الوثيقة بذلك العالم - أن يركز على بعض الحالات الإنسانية، أن يحكي قصصًا فردية، أيضًا حكايات عن مثقفين، تجربة شعب بأكمله، مركزًا الاهتمام أيضًا عن الوقت الراهن، المعاصر، عن تصور الناس لذلك الحدث الكبير بعد مضي خمسين عامًا عن ميراث تلك الثورة في نفوس الشباب المجريين وكيف يرون المستقبل.

كان إدواردو يعيش بصفة دائمة في بودابست في الشقة المطلة على نهر الدانوب التي ورثها عن جدته لأمه بعد انتفاضة ٨٩، وكان قد عهد بها لجارة لهم كانت تفتح النوافذ كل حين لتجديد الهواء. وكان يقضي بها فترات طويلة كلما سنحت له الفرصة .

كانت تعجبه كثيرًا تلك المدينة التي كان يعرف الكثير من أسرارها، واليوم قد نقل جزءًا كبيرًا من مكتبته وأرشيف أوراقه الشخصية، وإن كانوا يعتبرونه دائمًا صحفيًا صاحب رأي يعلق على الأحداث برؤيته الخاصة، إلا أن إدواردو لم يشعر قط بذلك. كان دائمًا يحاول التجول في البلدان المختلفة، يرى ويستمع قبل أن يصف الحدث أو يحكيه. لم يقل قط لفريق التليفزيون اذهبوا.. كان دائمًا أول من يذهب إلى مكان الحدث.

كان يعتقد أن أساس العمل الصحفي هو الأمانة المهنية، وأمانة الصحفي مع نفسه.

عندما يكون المرء غير راضٍ عن نفسه، سيكرر نفسه دائمًا ولن يتمكن من الاستماع إلى الآخرين، وقد استفاد كثيرًا في عمله بوصفه مراسلاً صحفيًا من لقائه مع صحفي بولندي لم يكن قد سمع به من قبل، وقد تقابل معه بالصدفة في إحدى القرى النائية في تنزانيا.. كانت من المرات الأولى التي ذهب فيها إدواردو إلى إفريقيا .

كان في تلك الفترة قد شغف بإفريقيا من خلال كتابات مورافيا وبليكسون، ولكنه الآن يدرك أن هناك إفريقيا أخرى لم يرد مورافيا أو

بليكسون اللذان سحرا بها أن يرياها، إفريقيا المآسي، الحروب والمجاعات والهجرات الجماعية والانقلابات العسكرية (كما أكد له الصحفي البولندي).

وقد قرأ إدواردو كتاب بليكسون عدة مرات عندما قام بإجراء تحقيق صحفي عن الكاتبة بعد إنتاج فيلم «بولاك». وكان قد زار أيضًا بيتها القريب من كوبنهاجن، البيت الذي ولدت فيه وتحول بعد ذلك إلى متحف، وكان إدواردو يتذكر من ذلك الكتاب فقرات كاملة.

وعندما زار الأماكن نفسها التي تحدثت عنها الكاتبة، شعر بأنه يعيش بعض اللحظات كأنها حلم. وقد فهم وصفها للمنظر الطبيعي في إفريقيا؛ بأنه فريد جدًا عندما يشعر الإنسان في النهار بأنه يكاد يلامس الشمس، ويسود صباحه ومساؤه الصفاء والهدوء نفسيهما، والهواء الصافي الذي يعكس ألوان الصحراء وخيالات السراب المسرح الحقيقي لكل حدث يهتز ويتذبذب مثل أوتار الكمان.. ثم الغابة المليئة بالغموض والتي عندما يدخل فيها المرء يشعر بأنه دخل في خيوط جدارية قديمة باهتة اللون، دكن لونها بمرور الزمن، فإنها رغم ذلك لا تزال ثرية بالألوان المختلفة التي يظهرها ضوء الشمس وانعكاسه فوق أوراق الأشجار، والنباتات المتسلقة التي تبحث عن جذع تستند إليه، والفطر بشعيراته الرمادية فوق الأشجار.

وقد تأثر إدواردو بعبارة الصحفي عندما ذكر له أن الشر يمثل سبعين بالمئة من الإنسان، لذا يطفح ويظهر عندما يضعف النظام

الاجتماعي.. وقد ذكر إدواردو ذلك بعبارة لبوريس باسترناك، كان يرددها دائمًا في أكثر اللحظات تعاسة في حياته: «إن الفن حتى عندما يصور المآسي ما هو إلا تعبير عن سعادة الوجود».

كان ذلك الصحفي البولندي يرى أن الواقع ينقسم إلى قسمين: الحس التاريخي من ناحية، وتفاصيل اللحظة من ناحية أخرى. وكان يخلد تلك التفاصيل بآلة التصوير الفوتوغرافي، ثم تأتي الكتابة في محاولة لسبر غور تلك التفاصيل والكشف عن أسرار الكون.

تحدث بعد ذلك عن الرحلات. كان يقوم بكثير من الرحلات؛ لأن ما يهمه في الحدث التاريخي هو نشأته وتطوره. كان يعتقد أن كتابًا عن الحاضر ليس إلا نصًا مفتوحًا، الجزء الأول في دورة أحداث سيسجلها التاريخ بمؤلفين آخرين فيما بعد. حكى له عن حياته وعائلته وعن فترة طفولته والذكريات المؤثرة التي صدرت بعد ذلك في كتاب قرأه إدواردو بتأثر كبير.

كان إدواردو يشعر ببعض الضيق وهو يستمع إلى قصص حياة ذلك الرجل الذي كان يحكي له عن طفولة صعبة، من الجوع والحرمان. فهو في الحقيقة كان قد عاش طفولة رغدة هنية، وإن كان قد اضطر إلى الصراع قليلاً مع أبيه الذي كان يريد أن يجبره على دراسة القانون. من ناحية أخرى، لم تكن وجهة نظر الأب مخطئة، فقد كان لديه مكتب محاماة في حي باريوني، مكتب شهير يحظى بسمعة طيبة، وكان

باستطاعته إدارة المكتب دون معاناة كبيرة بجانب أبيه، ثم وحده بعد ذلك، ولكنه عارض رغبة الأب بشدة، بل وإنه هدد بترك الدراسة إن لم يتركه يختار ما يشاء. وبعد ذلك ترك له الوالدان حرية الاختيار، وبخاصة بعد حصوله مبكراً على عقد عمل مع إحدى الجرائد المهمة. عارضت الأم في أول الأمر رغبة إدواردو في العمل بوصفه مراسل حرب، ولكنها رضخت في النهاية لرغبته، وإن كان إدواردو نفسه لم يكن يفهم سبباً في اختياره، ولكنه كان يذكر على غير هدى مقولة روزليني «إن التاريخ غير مسار موهبته».

وكان لدى إدواردو باع طويل ومعلومات كثيرة عن موضوع الرحلة وتعريفها، منذ مرحلة الدراسة الثانوية، فهو يتذكر أن مدرسته كانت قد أسندت إلى الفصل عمل بحث بعنوان «الرحلة في الخيال والتاريخ»، وقام بإجراء بحوث كثيرة عن هذا الموضوع، وقد بدأ بحثه من مفهوم الميثولوجيا الكلاسيكية لمفهوم البطل، كما كان يقول هوميروس: «الذي طاف كثيراً بعد أن دمر القلعة المقدسة لمدينة طروادة، رحلة بحارى سفينة الأروجو في أثناء بحثهم عن الصوف الذهبي، إلى رحلة هيركليس بحثاً عن ثيران جريون، ورحلة أنياس بالإضافة إلى رحلاته في الأسطورة والخيال».

بل إن ولعه دفعه إلى البحث عن الأقوال والأمثال المشهورة عن الرحلات، والتي ضمنها في بحثه ثم حفظها. أقوال مأثورة عن الرحلات

يتذكرها كل حين ويرددها. وقد أصبحت الاستشهادات بمثابة هوس بالنسبة إليه.

كان يتفق تماماً مع مونتافي عندما كتب: «في الغالب أجيب عمن يسألني عن سبب رحلاتي بأنني أعلم جيداً مما أهرب، ولكنني لا أدري عما أبحث».

وقد أكمل إدواردو هذه العبارة بعد ذلك بسنوات طويلة بمقولة للكاتب المجري ساندرو ماري: «لا ينبغي الهرب من شيء وإنما نحو شيء».

ولكن إلى أي غاية يهرب الآن؟

وكان إدواردو قد استبد به منذ فترة قلق على صحته كان يهدد أمنه النفسي، وأيضًا في العمل منذ أن سقط مغشيًا عليه في كابول، كانت حادثة أقلقته كثيراً واعتبرها أطباء قطاع الأمم المتحدة بمثابة إنذار، وطلبوا منه أن يقوم فوراً بالتحاليل والفحوصات الطبية اللازمة. ولكن كيف له أن يأخذ في الاعتبار تحذيراً طبيًا لصحته وهو يرى الجثث تلقى في الشارع بالمئات كل يوم؟ كانوا يرددون على مسامعه مقولة:

إذا لم تكن في صحة جيدة، فلن تستطيع العمل.

وبعد ذلك، أوضحت التحاليل أنه يعاني حالة مرضية تستحق العلاج، وقرر بعد ذلك أن يتوقف عن السفر حول العالم.. وهكذا عاد إلى إيطاليا.

وأسندوا إليه برنامجًا إذاعيًا يذاع صباحًا، وأصبح فجأة واحدًا من أكثر المذيعين، وقد زادت شهرته بعد نجاح كتابه الأول عن السير الذاتية والمقابلات مع الشخصيات الشهيرة؛ ولذا قرر أن يلحق الكتاب الأول بمجلد آخر يحوى كثيراً من التسجيلات والنقاط التي ملأ بها دفاتر مكدسة فوق رف المكتبة. وقد أعجبه أن يحكي عن الأقاليم في إيطاليا، عن شعبها، عن الناس العاديين الذين يتشدق الجميع بالحديث عنهم، ولا يفكر أحد أبدًا في فهمهم جيداً. وقد نصحه بذلك مخضرم في الصحافة الإيطالية.

كان قد أجرى معه حديثًا ذات يوم وصرح له: «الآن كبرت سني» وفي الماضى وددت كثيراً التنقل بين الناس في إيطاليا إلا أنني أرسلت دائمًا للعمل خارج إيطاليا، وآخر من فعله كان جويدو بيوفني، ولكن بيوفني فضل زيارة منازل أصحاب المصانع بدلاً من غرف العمال.

الفصل الثالث

ربما حانت لحظة أن يلتقط إدواردو أنفاسه؛ فقد سافر كثيرًا حول العالم لدرجة أنه ربما يعرف بعض القرى المترامية، النائية في الصومال وأفغانستان أكثر من معرفته بالقرى الواقعة في منطقته. ولد بروما، حيث ينتمي إلى عائلة ترجع أصولها إلى مدينة تشوشار إلى مدينة أربينو، مدينة ذات ماضٍ عريق ولد بها تشيشرون وغايوس ماريوس، وأيضًا الرسام جوزيبي تشيزاري المعروف باسم فارس مدينة أربينو. وقد انتقل جداه للعيش بروما قبل الحرب العالمية الأولى، وكانا يقطنان بشارع «فيلا تور لونيا» ببناية ذات لون أحمر ناري بالقرب من الحديقة الكبيرة التي كانت تحيط بالفيللا الزاهية التي كانت مقر إقامة موسوليني.. وهناك كان إدواردو يقضي فترة الظهيرة في اللعب مع رفاقه. كانوا يلعبون بالمسرح شبه المستدير أو الغماية في غابة نباتات الغاب القريبة من ليمونايا. كان إدواردو يعرف جيداً تاريخ الفيللا والبنايات الأخرى للحديقة، وأيضًا الحكايات الخيالية عن الزمن الذي كان يعيش فيه موسوليني، فقد حكى له والده كثيراً عن كل تلك القصص، فقد ولد هناك.

وقد قابل والده في أثناء طفولته أيضًا لويجي بيرانديللو، بل وإنه ذهب إلى بيته بصحبة جده، وكان مدرسًا للغتين اللاتينية واليونانية وصديقًا لبيرانديللو.

وبعد ذلك، انتقل بيرانديللو للعيش في فيللا صغيرة على بعد تقاطعين من بيتهما. وقد اصطحب جده ذات مرة صحفيًا مجريًا إلى بيت بيرانديللو لإجراء حديث معه؛ لا يتذكر والد إدواردو ما حكاه بيرانديللو للصحفي المجري.

وقد أثرت فيه كثيرًا كآبة حجرة المكتب الذي استقبلهم بيرانديللو فيه، كانت قطع أثاثه داكنة اللون، وقد كسيت المقاعد بلون أزرق غامق، كانت فقط الكتب الكثيرة المتراصة فوق الأرفف هي ما يضفي بعض الألوان على الحجرة. وقد طبعت في فكر والده صورة بيرانديللو ذلك الوجه الشاحب الشجي، وذقنه التي غطتها لحية صغيرة مدببة رمادية وحلة بنية اللون قديمة، وقميص من الفلانليت وقلم في جيب القميص، عندما كان يتحدث في بعض الأحيان، كان يبدو كأنه يتكلم بسخرية، وأيضًا يومئ بابتسامات.

كان والد إدواردو يتذكر فقط من حديث بيرانديللو مع الصحفي ما ذكره بيرانديللو من زيارته لمدينة بودابست لحضور عرض لبعض أعماله، وعندما سأله الصحفي عن رأيه في موسيقى اللغة المجرية، توجه بالحديث إلى والد إدواردو، وحكى أنه عندما كان أصغر منه سنًا في بيت والديه في صقلية كان قد تعلم كثيرًا من اللغة المجرية، بل وإنه في سن

الرابعة والخامسة من عمره، كان يتعلم اللغة المجرية بشكل شبه يومي، لأنه كان يتردد على بيتهم يوميًا صديق مجري لأبيه حارب مع أخيه وأصدقائه إلى جانب جاريبالدي. كان ذلك الشخص يقطن بجيرجينتي ويتردد على منزله بصورة شبه يومية، كان يتحدث إلى الصغير غالبًا باللغة المجرية، وقد علمه بعضًا من أشعار الشاعر الكبير بيتوفي، ثم ذات يوم اختفى ذلك الصديق الذي كان يحمل لقبًا ألمانيًا ولم يعد إليهم مرة أخرى.

وفي حدائق فيلاتور لوينا، حيث كانت تلعب كل فتيات الحي الصغيرات، وكانت من بينهن فتاة تدعى أبيوليتا كانت تصر دائمًا على أن تلعب دور الملكة. كانت فتاة رائعة الجمال، خضراء العينين، وكان شعرها الطويل الأحمر يصل إلى خصرها. وقد حكت لها أمها- مُدرسة تاريخ الفن بمدرسة جوليو شيراز الثانوية - عن الروايات الكثيرة لمعنى اسمها بعدة روايات.

كانت أبيوليتا تعجب إدواردو بشدة، وكان يحرص على القيام بدور الملك أمامها لينفرد بها بين قصبات الغاب.

كان يعود دائمًا مع والديه إلى مدينة أريينو، حيث بيت الجدين الريفي الذي أعيد ترميمه بالكامل، كان بيتًا صغيرًا يقبع بين أشجار الزيتون فوق التل الصغير بالقرب من مدينة تشيفيتا فكيا، فكانوا يذهبون كل صيف، وأحيانًا في نهاية الأسبوع، بخاصة بعد أن استقر الجدان للعيش هناك.

كان إدواردو يعشق التنزه بين الأطلال ويتخيل قوة الرجال الذين نجحوا في تشييد تلك القلاع. كان قد حكى له الجد كثيراً من القصص الساحرة عن تلك الأماكن لبرج تشيشرون، والتي ضاعت أساطيرها في الماضي السحيق، وقد حكى له أيضًا عن تقاليد قديمة وثنية ومسيحية مثل حكايات الطقوس الوثنية وأعياد البابونى والفافونى. فكان الفافونى عيدًا قديمًا مرتبطًا بدورة الشمس والبذر، وكانوا يحتفلون به في يوم ٢٣ يونيو ويشعلون نيرانًا ضخمة تتوهج في الشمس عند بداية الصيف .. طقوس تقديم قرابين للآلهة يصحبها الرقص والغناء، أما عيد البابونى، فكان يشتمل على توزيع عصيدة الذرة (البولينتا) على الجميع يوم ١٧ يناير، عيد القديس أنطونيو أباتي الذي كان يثير فضوله كثيراً.

كان التقليد يشتمل في الماضي على تقديم الجمعية الخيرية للكنيسة "كونفراترنيتا" لطبق من الطعام الساخن للفقراء. وهناك ذاق إدواردو حلاوة القبل للمرة الأولى عندما لثم شفاه فتاة صغيرة بين أطلال القلعة، على الرغم من أنها كانت طفلة ريفية، فإنها كانت أكثر جرأة من أبيوليتا. ذات يوم قابلته دون ملابس داخلية وأظهرت مفاتنها له كما لو كان الأمر مجرد لعبة.

وقد عاد إدواردو إلى أربينو مرات عدة أيضًا في أوائل مايو بدعوة من "Certamen Ciceronianum Arpinas" – وهى مسابقة للترجمة من اللاتينية تجرى عادة في مدرسة توليانو الثانوية بمشاركة كثير من الطلبة من جميع البلاد الأوروبية، والكُتّاب المجريين، وهى فعالية ثقافية مهمة أحياها سياسي وشاعر استطاع الجمع بين الشعر والسياسة.

وبفضلهم زينت المدينة في كل أرجائها الجميلة بقطع من الحجارة التي نقشت فوقها أبيات من الشعر، أبيات كتبها الشعراء من كل أنحاء العالم، ومنها قصيدة جميلة جداً كتبها البابا باولو الثاني. تجرى الاحتفالية في ميدان البلدية أمام تمثال تشيشرون، وفي كل مرة يسرى في المدينة روح المرح والاحتفال بين الشباب المجتمع والأعلام الملونة.

وذات ليلة، بينما كان إدواردو يتنزه بمحاذاة نهر الدانوب في بودابست بجوار جسر السلال، تذكر مثل قبس شرارة صورة فتاة مجرية قابلها في فلورنسا، وكانت تقرأ رحلة في إيطاليا لبيوفني. تذكر كيف سمته بصوتها الرقيق كصوت مراهقة ذات النظرة الفاتنة.

كان ذلك بالضبط في الفترة التي قرر فيها إدواردو أن يغير حياته؛ فقد انتقل للعمل في القسم الثقافي، وكان يقضي النهار متجولاً بين المعارض والمؤتمرات؛ ويستغل فرصة التجول الطويل ليتحدث مع الناس ويقترب منهم في المقاهي، والمحال والشوارع.

الفصل الرابع

بعد انفصال إدواردو عن زوجته، نشأت بينه وبين وكلارا الباحثة بجامعة روما علاقة عاطفية قصيرة، كانت كلارا تقوم ببعض الأبحاث عن مخطوطات للكوميديا الإلهية تنتمي إلى العصور الوسطى. وقد التقاها صدفة في بودابست، حيث كانت قد علمت من زميلة لها بجامعة فيرونا عن وجود مخطوطات للكوميديا الإلهية ترجع إلى القرن الرابع عشر بمكتبة جامعة بودابست، وعن وجود مشروع لنشر تلك المخطوطات في نسخة مصورة مع نسخة من أبحاث لدارسين مجريين ومن جامعة فيرونا طبقًا لمشروع مشترك بين جامعة فيرونا وجامعة سيزجيد، وهى إحدى الجامعات المجرية التي اشتهرت في أحداث ١٩٥٦؛ ففي ذلك العام عقد اجتماع ضم الأساتذة والطلاب بالقاعة الكبرى للجامعة وسجل للمرة الأولى احتجاج المثقفين المجريين ضد الديكتاتورية الشيوعية، وكما يعتقد كثيرون، كان هذا الاجتماع بمثابة الشرارة التي فجرت الثورة.

استقبل مدير مكتبة الجامعة بحفاوة كبيرة بمكتبه الفخم ذي الحوائط المكسوة بالخشب، حيث يحتفظ بالمخطوط القيم.

وكانت كلارا قد قامت ببحث دقيق تناولت فيه الإشارات إلى المجر في الكوميديا الإلهية؛ وفي أعمال دانتي اليجيري بصفة عامة.

وقد أعجبتها أبيات الأنشودة التاسعة عشرة من الفردوس:.

"يا لسعادة هنغاريا إن لم

تسمح بأن تسأم الهوان".

وفي اليوم التالي توجهت كلارا من فورها إلى جامعة سيزجيد لمقابلة أستاذ بالجامعة متخصص في دراسات دانتي، وكان قد بدأ بالفعل مشروع طبع المخطوطات، وقابلها هذا الأستاذ بمكتبه بالمعهد الثقافي الإيطالي؛ وحدثها كثيرًا عن شهرة دانتي في المجر وعن الترجمات المجرية المتعددة للكوميديا الإلهية، وأظهر لها الترجمة الإيطالية لقصيدة كتبها شاعر المجر الكبير جانوس أراني عن دانتي اليجيرى.

كانت كلارا تعرف من الشاعر اسمه فقط؛ لأنها ليلة وصولها إلى بودابست دعيت للعشاء في مطعم إيطالي «بومو داورو»، وكان المطعم يقع في شارع يحمل اسم الشاعر المجري الكبير.

قرأت كلارا في أثناء عودتها إلى بودابست بالقطار تلك القصيدة عدة مرات؛ لدرجة أنها حفظت أبياتها الأولى التي بدت لها مؤثرة:

فوق سطح مياه عميقة

مياه حريرية

ولكنها داكنة اللون مثل الظل

تحركت لتوها أوراق الزهور

كانت تتموج مثل ارتعاشة الأرض.

ذهبت في المساء مع ذلك الأستاذ الجامعى إلى مطعم يقع على ضفاف نهر التيبيسكو ويقدم أطباقًا تشتهر بها المدينة، يمتلك المطعم عائلة بيك المشهورة بإنتاج لحم الخنزير المقدد الذي تصدره إلى جميع أنحاء العالم. وتطرق الحديث إلى علم الآثار؛ وأخبرها عن ذلك النص الذي لا يعرفه كثيرون، والذي يحكي فيه شاهد عيان عن قادس غرق في النهر المتاخم للمطعم في أواخر القرن الثامن عشر. وكان ذلك القادس مقبلاً من رومانيا متجهًا إلى فيينا ويحمل آثار مقابر رومانية مهربة من رومانيا إلى تجار في فينسيا، وكان ذلك الأستاذ يحلم بتنظيم حملة للآثار مجرية – إيطالية لاستعادة تلك القطع النادرة. أخبرته كلارا بأن مديرة قسم الآثار بالوزارة الإيطالية المختصة إحدى صديقاتها المقربات؛ وأنها ستخبرها بكل تأكيد.

كلارا التي أتيح لها فحص كثير من مخطوطات الكوميديا الإلهية؛ فإنها دهشت بالفعل عند رؤية المخطوط الرائع الموجود في بودابست والمعروف باسم المخطوط الإيطالي الأول.

كان كتاب المخطوطات مغلفًا بالجلد الأحمر مزينًا بأهلة مذهبة في الأطراف، وقد طبعت فى المنتصف شارة الملك ماتيا كورفينو، بينما

طبعت الشارة التركية في ظهر الغلاف. المجلد يتكون من ٨٢ صحيفة من الرَّقِّ، وحالة الحفظ جيدة على الرغم من بعض بقع العفن فوق بعض الصفحات والذى يرجع بالتأكيد إلى رطوبة الأماكن المحفوظ فيها. النص مكتوب بالخط القوطي وبحبر من الذهب، وقد اصطف الكلام في عمودين، يصاحب النص إلى الصفحة السادسة والثلاثين نحو مئة من الرسومات الملونة المخططة بالقلم وبعض المربعات الفارغة. والصفحات الأربع الأخيرة تحتوي على تعليقات لكُتَّاب يونانيين ولاتينيين وعبارات من التوراة. ويعكف على دراستها أحد الباحثين المجريين من الجامعة الكاثوليكية ببودابست يعيش في الريف مع زوجته وأولادهم السبعة، وقد حصلت كلارا على عنوانه.

كان إدواردو قد استقر منذ فترة قليلة في بودابست؛ وقابل كلارا بعد وصولها بيومين فقط، في عصر أحد الأيام بمكتبة المعهد الثقافي الإيطالي. أنشئ مبنى المعهد في منتصف القرن التاسع عشر، وقد صممه واحد من أهم المعماريين المجريين في ذلك الوقت ميكالوس يابل الذي صمم أيضًا بازيليكا سان ستيفانو ومسرح دار الأوبرا. أنشئ المبنى في فترة زمنية قصيرة جداً من شهر سبتمبر إلى ديسمبر ١٨٦٥، وقد عمل به ٢١٤٠ عامل بناء، و٣٥٧٢ عاملاً يوميًا- أي نحو عدد العمال الذين بنوا هرم خوفو.

كان إدواردو قد توقف قليلاً قبل دخول المكتبة، حيث كان يتحدث مع بعض الزائرين الذين جاءوا لمشاهدة معرض تصوير فوتوغرافي

لفنان من مدينة بيستويا، وكان المعرض عن تمثال داود للنحات الإيطالي الشهير مايكل أنجلو. وقد توقف أمام روعة العمل وتصوير عجيزته بذلك الشكل الحسي، وكم لاحظ رواد المعرض أن معظم النساء يتوقفن عند هذا الجزء من اللوحة.

وفي مكتبة المعهد، وأثناء انتظاره بدء محاضرة أثارت فضوله عن خرائط الجنرال مارسيليى، أخذ إدواردو يتصفح كتابًا عن ثورة ٥٦ أصدره المعهد في الذكرى الأربعين لقيامها. كان سيلقي المحاضرة أستاذ جامعي متقاعد ومتخصص في علم الخرائط قد درس لمدة خمسين عامًا الخرائط القديمة والمخطوطات المجرية.

كان إدواردو قد اهتم بدراسة لويجي فرديناندو مارسيللي منذ نحو ثلاثين عامًا في بداية حياته المهنية؛ عندما ذهب إلى مدينة بولونيا لتصوير حلقة تليفزيونية عن تمثال من البرونز من أعمال مايكل أنجلو قام الأتراك بصهره. وفي أثناء ذلك زار مكتبة الجامعة بصحبة مديرتها، وقد أثار إعجابه شخصية مارسيللي المغامرة، فذلك الكونت من مدينة بولونيا قام برسم كثير من الخرائط الملونة لدول شرق أوروبا، وكان في أثناء الحرب التركية واحدًا من أفضل الخبراء بالأراضي المجرية. أما كلارا فذهبت إلى مكتبة المعهد الثقافي الإيطالي بناء على نصيحة مدير مكتبة الجامعة للبحث عن عدد من مجلة «كورفينا» للعلوم والآداب والفنون، والتي تصدرها الجمعية المجرية -الإيطالية ماتيا كورفينو باللغة الإيطالية، ويقوم بتحريرها أستاذان من جامعة بودابست، والمجلة التي

تسمى الآن «كورفينا الجديدة»، كانت قد نشرت في عددها الصادر عام ١٩٣١ ملخص رسالة دكتوراه عن مخطوطات دانتي؛ يراها مدير المكتبة واحدة من أهم الدراسات في هذا المجال وتحوى كثيراً من المعلومات المهمة لبحث كلارا. حددت كاتبة المقال إيلونا بيركوفيتس الطراز والترتيب الزمني للمنمنمات في بلاط الدوق أندريا داندولو بفينسيا في نحو عام ١٣٤٥، وإشارة المخطوط التي توضح صاحبها «إيمو الفارس ذى الأصل النبيل»، وهو من قام بالدفاع عن مدينة «كيوجا»، باب الدخول إلى مدينة البندقية في حربها ضد جنوة عام ١٣٧٩، وقد أسره القائد المجري جيراردو دي نازالور، وقد دفع فدية تحريره من الأسر خمسة آلاف داكوت وخمسة عشر ألف داكوت قرضاً حربياً، وتعتقد كاتبة المقال أن مخطوطات دانتي كانت جزءاً من الفدية.

وتؤكد كاتبة المقال أن المخطوطة الموجودة في مكتبة بودابست؛ لها أهمية كبيرة مقارنة بالمخطوطات الأخرى التي تحتوي على رسومات لتزيين الصفحات أكثر من شرحها، حيث إن منمنمات تلك المخطوطة على درجة كبيرة من الجودة.

بينما كانت كلارا تنتظر أن تحضر لها أمينة المكتبة التي عرفت بعد ذلك أن اسمها باللغة الإيطالية يعني شعاع الشمس، نسخة من المجلة، بدأت تجيل النظر بين أرفف الكتب في الصالة الرئيسية للمكتبة، وجذب انتباهها وجود سلم خشبي متعرج في إحدى الزوايا، كان السلم يقود إلى ممر خشبي ثلاثي الشكل يمكن من خلاله الوصول إلى الكتب

في الأرفف العلوية، لم تستطع كلارا مقاومة صعود السلم الخشبي المتعرج، صعدت بتوأد؛ إلا أن الخشب أحدث تحت أقدامها صريراً مزعجًا، ما جعلها تعود من فورها إلى مكانها الأول بخفة ورشاقة.

أمسكت بمجلة لم تكن قد سمعت عنها من قبل، وقد جذبت انتباهها صورة الغلاف للوحة تمثل باولو وفرانشيسكا، وكانت مجلة إيطالية يصدرها المعهد الثقافي الإيطالي، وعندما تفحصت المجلة وجدت صوراً أخرى لنفس الرسام لاجزوس جولاكسي الذي استوحاها من الكوميديا الإلهية. أثارت المجلة فضولها بشكل كبير وبدأت في قراءة المقال. إن المقال يتحدث عن فكر ميهالي.. بابيتس، الشاعر المجري الكبير في القرن العشرين ومترجم قصيدة دانتي إلى اللغة المجرية.

وقد ألهمت قصة باولو وفرانشيسكا الأعمال الأولى للاجزوس جولاكسي الذي عاش فترة طويلة من حياته في إيطاليا، ومات مجنونًا في الخمسين من عمره، ومن عباراته المشهورة عن إيطاليا: «عندما أتذكر سنوات دراستي في إيطاليا يتداعى إلى ذهني كثير من الذكريات والرؤى الرائعة، فيحلو لي تذكر عندما كنت أذهب سيراً على الأقدام كل يوم بسعادة وحماس طفل دون الشعور بأي تعب قاطعًا المسافة التي تفصل بيتي في روما بشارع كوروناري رقم ٦٤ ومتاحف الفاتيكان، حيث الأعمال الخالدة لرافائيل، وفي عام ١٩٠٣ بمدينة روما رسم جولاكسي لوحة زيتية يتماهى فيها جمال الطبيعة الإيطالية مع الخط الفني الناعم الذي يميز لوحة فرانشيسكا دا ريميني وباولو مالاتيستا، يظهر فيها باولو حالما مستنداً بعذوبة إلى كتف فرانشيسكا».

وكما يرى كاتب المقال؛ جولاكسي لم يرسم رؤية دانتي، وإنما أراد تصوير قصة العاشقين، راود كلارا بعض الشك من أن يكون ذلك الرسام قد اطلع على مخطوطات دانتي بمكتبة الجامعة في بودابست، ولكنها كانت تشعر بأن هناك ما يربط بينهما، وإن كانت لم تستطع تحديد ماهية ذلك الشيء، وعاد إلى ذهنها بيت دانتي في الكوميديا الإلهية عن العقل عندما يصبح عبداً للغريزة فيدمر صاحبه..

علمت أن التحليق أبدي،

لمن ارتكبوا خطايا الجسد الشهوانية

ففضلوا على العقل متعة الأجساد.

كم من المرات فكرت كيف تخضع الرغبة العقل؟ شعرت رغماً عنها بتضرج وجنتيها بحمرة الخجل، كأن هناك من يتلصص على أفكارها «الجمال والفجيعة شقيقان بائسان على الأرض»، قرأت تلك العبارة في المقال، ثم واصلت قراءة مقال بابيتس الذي كان يقول: إن الرغبة والحزن هما الشيء نفسه، أيضاً جولاكسي كان يطبق ذلك على نفسه كل ابتسامة باكية وكل شجن مبتسم، ولم يكن شكل الجمال الأنثوي لديه بالجمال الصارخ، وإنما صورة رقيقة تجمع بين المتناقضات وتفصح عن الصراعات الداخلية.

وبالضبط في تلك اللحظة رفعت عينيها؛ كأنها تبحث عن عيني إدواردو الجالس أمامها، وأدركت في تلك اللحظة أنه يشبه – بشكل كبير–

شخصية تليفزيونية شهيرة، وإن بدا أصغر سنًا وأطول قامة. كان إدواردو قد لاحظها عند دخولها وتفحصها جيداً وهى تتحرك بين الأرفف بخفة ورشاقة، وتصعد السلم الحلزوني مرتدية تايير كريمي اللون يظهر جمال جسدها دون ابتذال. وعندما رآها تذكر مقولة لأحد أصدقائه، وربما قد قرأها في أحد الكتب: المرأة الجذابة لا يلزمها شيء لإظهار جمالها، والمرأة التي تخلو من الجاذبية لا ينفع معها شيء، والمرأة التي كانت تتحرك أمامه في صالة القراءة، أعطته انطباعًا بأنها فعلاً فاتنة، وقد بدا وجهها مألوفًا لديه، وإن لم تكن المرة الأولى التي يراوده فيها هذا الشعور، ليس فقط عند رؤية الأشخاص، وإنما أيضًا عند رؤية الأماكن، وقد رأى كثيراً من الأشخاص وزار كثيراً من الأماكن لدرجة تصيب ذهنه في بعض الأحيان بالشرود؛ ومن ثم لم يعد يثق في حواسه، بل إنه لجأ إلى أحد أصدقائه الأطباء والذي طمأنه أن ذلك ظاهرة طبيعية، بل إن هناك متخصصين في هذه الظواهر في كل أنحاء العالم. على أي حال بدأ يقدح زناد فكره، وأخيراً برقت في ذهنه الخاطرة. كانت تبدو واحدة من الفتيات الأربع اللاتى رسمهن فليتشي كازوراتي في لوحته الشهيرة «الآنسات» التي رسمها خصيصًا للعرض ببينالي ١٩١٢.

وقد شاهد اللوحة في فينسيا بمتحف الفن الحديث بكافوسكاري، وتوقف طويلاً أمام هذه اللوحة، ليس فقط لأنها العارية والثلاث الأخريات مرتديات ملابسهن، ولكن لأن وجهها الفاتن وعينيها اللامعتين

تنظران إلى أعلى، وقد دهش لرؤية اللوحة بشكل أثار ضحك زميله بمكتب فينسيا عندما أخبره بأنه واثق من أنه لو قابل امرأة مثل هذه سيهيم بها حبًا. كان جسدها نحيلاً كجسد طفلة بثديين صغيرين. وفكر أن جسد المرأة التي أمامه يختلف تمامًا عن جسد الفتاة في الصورة.

ربما كان الشريط الأزرق الذي يحيط بجبهتها بين خصلات شعرها؛ كان يطيل وجهها بعض الشيء تاركًا خصلتي شعرها على الجانبين، وفي تلك اللوحة الفريدة التي تحمل عنوان «الآنسات»، كان كازوراتي يبحث في حياة النساء الأربع بسخرية مسرحية. وقد أشار أيضًا إلى أسمائهن في بطاقة نقدية، وكانت ملابسهن ترتبط بإكسسوارات وضعت بالطابق الأول، كان يريد أن تعبر اللوحة بشكل رمزي عن الفتيات الأربع بتعبيرات نفسية مختلفة: دولوريس وفيدانت وبيانكا وجويكوندا.

أشار إليهن إدواردو بابتسامة وقال: «النسوة الأربع : زوجاته» فتاتان أحبهما كثيراً في شبابه، كانت تنقصه الرابعة. يبدو أن تلك اللوحة قد رسمت خصيصًا له.

كان إدواردو يبحث عن ذريعة يتحدث بها. تقابلت عيناهما وكسى وجهها طيفًا من حمرة الخجل. لاحظ ارتباكها وتبادلا ابتسامة وهى لم تستطع أن تصمت أكثر من ذلك، سألته إن كان فعلاً هو أم أنه شبيه مقدم البرامج الشهير، وتضرج وجهها بحمرة الخجل مرة أخرى وهى تسوق مبررات عدم تأكدها؛ لأن التليفزيون قد يجعل الناس أكبر في

العمر وأصغر في الحجم، بينما إدواردو في الحقيقة يبدو أصغر عمراً وأكثر فحولة، كانت تود استخدام تعبير آخر، فكلمة الفحولة تفسح المجال للكثير من التفسيرات، ولكنها لم تجد لفظًا آخر للتعبير عن تناقض جمود التليفزيون وحيوية الحقيقة، وقد اعترفت له بأنها انتقلت للعيش مع خالتها وهي آنسة عجوز في كيتي عندما التحقت بالجامعة. أما هي فمن مدينة سولونا بمقاطعة أكويلا، وقد كانت خالتها من أكثر المعجبات به، فكانت تجبرها على الاستيقاظ مبكراً لمشاهدة البرنامج الذي يقدمه، وعندما قرر ألا يقدم ذلك البرنامج شعرت كلارا بالارتياح، اعتذر لها إدواردو عما سببه لها من ازعاج بابتسامة ساخرة.

تحدثا بصوت منخفض لفترة، فصالة القراءة بالمكتبة لم تكن كبيرة، وكان هناك عدد من الأشخاص، أظهر لها إدواردو الكتاب الذي استعاره من المكتبة واقترح عليها حضور الندوة عن خرائط الجنرال مارسيللي، وقد أخبرها عن قصة حصوله على رتبة لواء، ثم فقده رتبته وعودته جنديًا عاديًا مرة أخرى، ما يوضح كثيراً عن حياته المغامرة، على أي حال لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لإقناع كلارا بحضور الندوة.

قدم مدير المعهد الثقافي المحاضر العجوز، كان مدير المعهد طليق اللحية وذا مظهر شاب، أدرك من فوره وجود إدواردو بين الحاضرين وحياه باحترام، ما أجبره على الوقوف وتحية الحاضرين وسط تصفيقهم.

كان المحاضر ظريفًا، وقد احتوى حديثه على كثير من الطرائف التي كانت تروى للمرة الأولى، استطاع المترجم نقلها ببراعة إلى اللغة الإيطالية، بدا أنه يعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياة مارسيللي، رجل متعدد المواهب يعتبر بحق مثالاً للعالم، خبيرًا بالخرائط، عالم فلك، عالم كائنات بحرية، عالمًا آثاريًا، جيولوجيًا، عالم محيطات، عالم إنسانيات، رسامًا وعالم لغويات، وفي رأي ذلك البروفيسور الذي كان يبالغ دون شك لم يولد منذ زمن يوليوس قيصر من جمع بين شخصية العالم والمحارب. أسهب المحاضر في المعلومات عن السيرة الذاتية، فذكر أن مارسيللي ولد في بولونيا عام ١٦٥٨، لأسرة ثرية احتفظ أفرادها بلقب كونت، وقد تلقى تعليمًا رفيع المستوى ودرس على يد أشهر الأساتذة في عصره أيضًا في بادوفا وروما.

كان يتحدث بطلاقة الإيطالية واللاتينية والفرنسية، بل وكان يتحدث باللغتين الصربية والتركية. وبعد كثير من الخبرات انضم لصفوف المجريين وحارب العثمانيين لمدة عشرين عامًا في الفترة من ١٦٨٢ إلى ١٧٠٢، ترقى من رتبة جندي بسيط إلى رتبة جنرال، ثم فقد رتبته وعاد جنديًا بسيطًا ربما لعدم طاعة أوامر قادته، أصيب بجروح غائرة لمرات كثيرة؛ لأنه كان دائمًا في الصفوف الأولى، وكان قد صمم كثيرًا من الخنادق للاختباء، من قلاع وجسور، ورسم أكثر من ألف خريطة. كان يصاحب محاضرة البروفيسور العجوز عرض لمشاهد قديمة، بدا فيها مارسيللي رجلاً طويل القامة ذا ملامح مميزة وعينين زرقاوين، كان

يصفه بالشخص طيب القلب شديد الحماس، ولكن يفتقد في رأيه إلى شيء مهم، بل وفي بعض الأحيان لا غنى عنه "الدبلوماسية".

عُرض فيلم صوَّره بنفسه في قصر بوجي في بولونيا، وقد صوره بأسلوب هواة فكانت الصور تتراقص فيه باستمرار، حيث توجد المجلدات الكثيرة التي كتبها مارسيلي، وأيضًا المخطوطات التي تناولها إدواردو في برنامجه من المجموعة الكبيرة التي تحوي أكثر من ٦٠٠ مجلد باللغات العبرية واليونانية والأرمينية والعربية والتركية والفارسية، ومن بين المشاهد التي تم عرضها من متحف مارسيللي، أيضًا مقتنياته الشخصية، وكتب سير ذاتية، ولوحة كبيرة له بحلة الجنرال ممتطيًا الفرس، وقد رسمها فنان من مدينة بولونيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكانت تزين مكتب مدير المكتبة.

أظهر المحاضر عصا عثر عليها مارسيللي وتعتبر من المقتنيات الثقافية لدولة المجر، وكانت تستخدم في كتابة الحروف الهجائية الرونية، وقد حفر فوقها تقويم من العصور الوسطى للسيكيللى. نجح مارسيللي في نقل نص التقويم، وأيضًا الأبجدية الرونية إحدى هذه الخرائط كانت تحمل اسم سيكولسا، الاسم القديم لترانسيلفانيا.

وبعد ذلك تحدث المحاضر عن عمل من إبداع مارسيللي «الدانوب»، كان يعتبره ذا شهرة عالمية، وقد نشر في ٦ مجلدات عام ١٧٢٦ في أمستردام، ثم أعيد نشره باللغة الفرنسية. كان المحاضر يؤكد أنه أفضل عمل كتب على ضفاف النهر العظيم، وبعد هذه المقولة رفعت

كلارا رأسها عن المجلة «كورفنيس» التي كانت تتصفحها بشرود منصتة إلى كلمات ملقي المحاضرة، وبالأصح إلى مترجمه الظريف. نظرت إلى إدواردو الجالس بجانبها والتقت عيناهما من جديد وشعرت بالدماء تتدفق من جديد إلى وجنتيها، اقتربت منه وهمست في أذنه وسألته: هل قرأت «الدنواب» لكلاوديو ماجريس؟

كانت كلارا قد قرأت ذلك الكتاب بحماس عندما قررت مع إحدى صديقاتها القيام برحلة في بعض مدن وسط أوروبا وقبل السفر إلى بودابست والنمسا، كانت قد أعادت قراءة الفصول الخاصة بالمجر والنمسا؛ لأنها كانت تعتقد أنها ستقضي بعض الأيام أيضًا في فيينا، وقد بحثت في الكتاب عن الجزء الذي يقارن فيه بين المدينتين، وكانت تبدو فيه بودابست في عين الكاتب مختلفة عن فيينا المرتبطة بالماضي ذات الأمجاد الراسخة في ذاكرة التاريخ، فهي مدينة عتيدة دموية تمثل القوة التي ينبغي أن تتحلى بها أوروبا التي كانت تحتفظ بسحرها وفتنتها.

بعد انتهاء تلك المحاضرة الممتعة، ذهب مدير المعهد لتحية إدواردو والسيدة الجالسة بجانبه ودعاهما إلى مكتبه، كانت كلارا تتحدث عن فخامة المبنى وعن الصالون الفخم الذي لمحته في أثناء عبورها الردهة الرئيسية. تناول مدير المعهد نسختين من المجلة ذات الغلاف الأحمر القاني من دولاب مكتبه وأهداهما إلى ضيفيه. كان المجلد يحكي قصة بناء المبنى ويعرض لوحتين لفنانين إيطاليين من أوائل القرن العشرين طالما شدتا انتباه إدواردو.

كانت إحداهما لألدو موريياندي «كاتدرائية ميلانو»، والأخرى لأنطونيو بيرارا «رؤية روما من تلال بينشيو»، أراد مدير المعهد دعوتهما للعشاء، ولكن إدواردو بعد نظرة اتفاق مع كلارا كأنهما صديقان منذ أعوام كثيرة؛ شكر مدير المعهد وقال إنهما يفضلان التجول في المدينة.

كان برنامج المعهد يضم أيضاً مائدة مستديرة عن «كانوفا» بعنوان جذاب «العبقرية الحزينة»، وكان إدواردو قد شاهد نسخة من العمل النحتي للجميلات الثلاث لكانافو في أدنبرة، وهناك حضر في الصيف محاضرة ألقاها مدير الجاليري الوطني عن كانوفا وفوسكولو، وقد أثارت اهتمامه بشكل كبير، وكان هناك أيضاً كونشرتو في الليلة التالية اعتبره مدير المعهد أهم حدث في البرنامج الموسيقي، فقد كان الحفل يشمل مئة عازف كمان من أصول غجرية ذائعي الصيت في المجر.

وعندما خرجا إلى الطريق اعتذر إدواردو لكلارا التي ربما كانت ستقبل دعوة المدير، ثم أخبرها بأنه ربما من الأفضل الذهاب إلى أحد المطاعم لتناول العشاء وحدثها عن مطعم قريب ربما هو واحد من أفضل مطاعم المدينة يقدم طبق كبد الأوز المشوي.

تذكر أن الطبق اسمه كبد الأوز على طريقة لوكوليس. كان المطعم مثل الشارع الذي يمر أمامه يحمل اسم المتحف الوطني المتاخم الذي أنشئ في أوائل القرن التاسع عشر، كان الساقون في المطعم يتحدثون الإيطالية ويعرفون إدواردو معرفة جيدة؛ لأنه تردد على المطعم بعض المرات، ولأنهم يعرفونه من خلال برامج التليفزيون، فقد كانت قناة «راي١» تصل تقريباً إلى كل أنحاء بودابست.

كلارا بعد طلب الطعام، استأذنت في الذهاب إلى الحمام لغسل يديها، تبعها إدواردو بناظريه، وتأكد أنه محق في تقدير جمال المرأة، النحافة المتوسطة، تقاسيم جسدها الرائع، الوجه المحدد، الشعر الكستنائي الطويل الذي صففته إلى الخلف بعناية شديدة، بينما تتطاير خصلة منه مكونة ما يشبه ذيل الحصان، وقد ربطتها بمشبك شعر والشريط الأزرق حول جبهتها، كانت تبدو امرأة شاردة الذهن بعينيها الواسعتين اللتين تتلألأن، فجأة تنظر إليك ثم تغير نظرتها وتتوه بشرود، كان يبدو أنها متقلبة المزاج، وأيضاً شديدة الحساسية، فقد كان وجهها يتضرج بالحمرة بسهولة. كانت أسنانها ناصعة البياض، وكان فاهها الواسع عندما تبتسم يجعلها تبدو تماماً مثل جوليا روبرتس، لم يكن من السهل تحديد عمرها، ربما لم تتعد الخامسة والثلاثين، كانت ترتدي تاييراً كريمي اللون وقميصاً أزرق، لم تكن ترتدي جوارب، وإنما كانت ترتدي حذاء ممتاز الصنع ذا كعب عالٍ، كان يبرز جمال كاحليها النحيلين وساقيها الجميلتين، كانت تتحرك بأناقة كأنها غزال.

ربما ذلك التايير الذي كان يبرز- بالكاد- تفاصيل جسدها كان يضفي عليها عمراً أكبر من عمرها الحقيقي، كانت تزين عنقها دلاية من الفضة، قطعة يدوية الصنع معلقة في سلسلة تكاد لا ترى. في بعض الأحيان كان يعبر وجهها الشاحب غلالة رقيقة من الحزن تعطي لوجهها غموضاً لا يمكن كشف كنهه ويفضحها دائماً احمرار وجهها كل حين.

وفي الحمام تحدثت كلارا إلى عمتها ماورا التي بقيت بفاه فارغ على طرف التليفون. ماذا يفعل إدواردو ليمنتاني في بودابست؟ بالتأكيد

كانت العمة ماورا تعلم أن لإدواردو أقارب بعيدين في المجر، وأنه يمتلك أيضًا شقة صغيرة في العاصمة المجرية، حيث كان يذهب كل حين. كانت تعلم أيضًا بمرضه وبفترة النقاهة الطويلة. كانت العمة ماورا تمزح قائلة إنها على استعداد لاستقلال أول طائرة والذهاب فوراً إلى بودابست. أنهت كلارا المكالمة قائلة: سأحكي لك كل شيء غداً.

لا يمكن أن تتحدث على الهاتف الجوال أكثر من ذلك، عندما عادت إلى المنضدة نظر إليها إدواردو بعينين متسائلتين. ربما كانت كلارا تحادث رجلاً. من المستحيل أن امرأة بذلك الجمال تظل وحيدة. لم تفهم كلارا نظرات إدواردو وتضرج وجهها بالحمرة وبدأت في الثناء عليه ومدحه بشكل مفتعل.

أشار إدواردو إلى زيارته لبودابست التي تتعلق بعمله في التليفزيون، ثم انتقل الحديث إلى المجر والمدينة التي لم تكن تعلم عنها شيئًا بالمرة، وقد أعجبتهما المحاضرة عن مارسيللي، وبدأت كلارا تتحدث عن كتاب ماجريس. وتساءلت من يدري إن كان ذلك البروفيسور قد قرأ «الدانوب» لماجريس أم لا؟ ومن يدري إن كان ماجريس نفسه قد قرأ كتاب مارسيللي؟ لا تذكر أن الكاتب من مدينة تريستي تحدث عنه في أي جزء من الكتاب. وكلارا تشرد بعينيها الواسعتين وتنظر إلى أعلى نحو قبة الصالة الجميلة المزينة برسومات لقصص دينية، وتذكرت أن ماجريس في كتابه أشار إلى مبنى البرلمان القديم، لكنه لم يشر إلى أن ذلك المبنى أصبح إيطاليا. ظنت كلارا أنها مخطئة بالتأكيد، ولكنها لا

تتذكر أن ماجريس أشار إلى المقهى الرائع «نيويورك» الذي تذكره الكتب الإرشادية عن المدينة، بل لم يذكر الكاتب ساندور مراى الذي أصبح ظاهرة أدبية بعد ظهور كتابه «الجمرات» الصادر عن دار نشر «أدولفي» وبعد عدة سنوات من صدور كتاب ماجريس. كان إدواردو شغوفًا بقراءة مراي. وفي أثناء الحديث كانت كلارا تتوقف كل حين وتنظر إلى يدي إدواردو النحيلتين مثل يدي عازف البيانو، وقد صرحت له بذلك. تذكر إدواردو أنه كان يعتقد في خاصية يد عازف البيانو؛ إلا أن واقعة حدثت له جعلته يغير من رأيه. كان وقتها في براغ لإعداد حلقة إذاعية عن الربيع الموسيقى بالمدينة، وذات ليلة تعرف إلى عازف بيانو روسي، وعندما صافحه ضغط على يديه لدرجة كاد معها أن يكسرهما. كانت يداه خشنتين صلبتين، ولكن عندما جلس إلى البيانو وبدأ في العزف خرجت من بين يديه أنغام ملائكية. تذكر إدواردو حادثًا يتعلق بيديه، عندما كان في الصومال يغطي أخبار الحرب لقناة «تى جى١»، وكان قد شاهد لتوه مذبحة لقصف أحدث دمارًا وموتًا في كل مكان، وقد نجا من الحادث إلا أنه تأثر به بشدة وحدثت له فجأة واقعة في منتهى الغرابة، شعر بتقلص شديد في عضلات اليد لدرجة أنه لم يعد قادرًا ليس فقط على الكتابة، وإنما أيضًا على مجرد الإمساك بالقلم على الرغم من قدرته على الإمساك بكوب مياه مثلاً، ذهب من فوره إلى المستشفى وجد الطبيب المناوب– وكان يعرفه جيدًا فهو شاب ذو لحية شقراء طلب منه ألا يقلق، وأخبره بأن الأمر مجرد حالة نفسية يسمى تقلصًا عضليًا يصيب الكُتّاب، ربما ينبغي له أن يخضع يديه للراحة

قليلاً، وسيختفي الألم سريعًا وإذا لم يحدث ذلك فإن الحالة ستظل قائمة. لم يخبر إدواردو الطبيب بأنه أعسر وأنه يستخدم اليدين اليمنى واليسرى دون تفرقة.

على أي حال، لم ينم فترة طويلة من الليل، وعندما استيقظ وجد أن الألم قد اختفى.

الآن يقرأ إدواردو الترجمة الإيطالية لكتاب مراي الذي يعتبره كتاباً رائعًا «اعترافات فرد من الطبقة البرجوازية»، كتب مراي روايته في سن الرابعة والثلاثين، ولكنه يظهر فيها حكمة رجل في الثمانين.

كان يعجبه كل شيء في تلك الرواية: المناخ، الشخصيات، الطريقة التي يعالج بها الأمور وسالحساسية الفائقة في التعامل مع الأب.

الفصل الخامس

في اليوم التالي؛ كان من المقرر أن يسافر إدواردو لمدة يومين إلى مدينة بلاتونفورد، مدينة رائعة الجمال على ضفاف بحيرة بالاتون. كان السفر تلبية لدعوة زميل من الإذاعة المجرية عاش لفترة طويلة في إيطاليا، وكان يتقن الإيطالية، كانت الدعوة لحضور حفل تسليم جائزة باسم الشاعر الإيطالي الكبير سلفاتوري كوازيمدو الذي قضى في تلك المدينة المشهورة بمركز لعلاج أمراض القلب فترة قصيرة عام ١٩٦١.

وهناك كتب كوازيمدو قصيدته «على ضفاف البالاتون»، وعلى غرار ما حدث مع الشاعر الكبير تاغور الذي ذهب هناك للعلاج عام ١٩٢٦، طلبوا من الشاعر الكبير غرس شجرة زيزفون بالقرب من شاطئ البحيرة، ونمت الشجرة، وفي كل عام في أوائل شهر سبتمبر يحتفل بذكرى كوازيمدو بحضور ابنه أليساندرو، الممثل والمخرج البارع الذي يقرأ بإتقان مبهر قصائد أبيه.

وقد وضعت أمام شجرة الزيزفون لافتة من الرخام أسفل تمثال نصفي لكوازيمدو من البرونز؛ نحته الفنان فرانشسيكو مسينا، وفوق

اللافتة كتبت عبارات تخليدية للكاتب الكبير قال فيها: "اغرس هذه الشجرة على ضفتي بحيرة البالاتون بقلب تملؤه السعادة، لتثمر أوراقها بعد حياتي القصيرة، وتضرب جذورها بعمق في الأرض المجرية الخالدة الأبية التي خاضت كثيراً من المعارك في تاريخها. وأن يحيي كل فرع من فروعها الوافر بالأوراق كل من يأتي إلى هذا المكان، كل محبي الشعر الذي يغرس في نفوس البشر باختلاف أوطانهم، مبادئ الحب والعدالة".

وقد نُشر منذ سنوات كتاب عن هذا التقليد وتلك الأشجار.

نقل إدواردو تلك الكلمات في الدفتر الذي لا يفارقه أبداً، والذى سطر به أيضًا الأبيات الأولى من قصيدة الشاعر المجري ساندرو بيتوفي «أرض البادية شتاء» التي ترجمها كوازيمدو إلى اللغة الإيطالية. فتح دفتره وقرأ لكلارا:

الآن الأرض المزروعة أصبحت جرداء،

الخريف مسرف مبذر،

ما يشقى الربيع والصيف في جمعه،

يبعثره دون حساب،

فلا يجد الشتاء من الكنوز الكثيرة سوى طبقة من الجليد.

وبعد انتهاء العشاء قررا تناول مشروب بـ«مقهى نيويورك» الذي كان قد أعيد افتتاحه منذ مدة قصيرة. قطعا شارع راكوزيتسي سيراً

على الأقدام. استطرد إدواردو في الحديث وحكى لها عن بعض البنايات ومن سكنها من المشهورين. الشيء نفسه عندما وصلا إلى ميدان «بلاها لوجيزا» وقد حكى عن حياة السيدة التى سمي الميدان باسمها.. ممثلة ومطربة مجرية شهيرة عاشت فترة طويلة بمدينة بلاتونفورد، وقد أعجبت كلارا كثيراً بـ «مقهى نيويورك» من الخارج، واستمعت بشغف لما كان يحكيه إدواردو عن ذلك المقهى الذي كان قد أصبح واحداً من رواده الدائمين.

وفي الفراش تغير إدواردو تماماً، تخلى عن الجدال الذي اشتهر به خلال برامجه التليفزيونية مع محاوريه، أصبح أكثر حناناً وثقة في لمساته، كما لو كان قائد أوركسترا يدير الحفل بعصاه السحرية. بدا أن جسد كلارا يعرفه جيداً، قبلاتها، لمساتها وعطرها. أدرك أن سر فتنتها يكمن في فمها ربما أكثر من عينيها اللامعتين، فالطريقة التي تحرك بها شفتيها، والتي تبتسم بها وقدرتها على الانتقال في لحظة من السخرية إلى المزاح، من الإيحاء إلى التصريح بالعاطفة، فيتلون وجهها بتعبيرات مختلفة ويعبر عن الحسية وعن مشاعرها الداخلية. كان إدواردو يفكرنى أنه تمنى دائماً إلى جواره امرأة هادئة محبة ومتحفظة لا تهوى العشق الصاخب وإثارة الخلافات، أخيراً رفيقة درب لأيامه المقبلة لسنوات الشباب الناضج كما اعتاد أن يسميه مازحاً. لم يكن بالتأكيد يبحث عن امرأة تغوى وتعذب مثل أفروديت.

وعندما كان يعمل بالإذاعة، فكر مرات كثيرة في تخصيص حلقة عن معنى الإغراء والحب الحسي في المجتمع المعاصر، بمشاركة أيضاً

من المستمعين. وقد طرأت لديه هذه الفكرة في باريس في ظهيرة يوم حار بعد عودته من زيارة متحف اللوفر. كان يعتقد مثل كثيرين، أن الإغراء الحسي لا يولد من رؤية جسد عارٍ، وإنما هو خيال عقلي، قد يفسر ذلك أن بعض اللمحات الصغيرة، بعض التصرفات التي لا معنى لها، والتي لا ترتبط بالجنس بشكل مباشر، قد تمثل بالنسبة إلى البعض مثيرات جنسية هائلة. ربما ذلك في حالة هيرا دي سامو بفتنتها الهادئة التي لا تقاوم، بهذه الحركة لليد فوق الصدر، تصرف عذري كأنها تريد حفظ نقاء الآلهة فكانت تضغط بيديها بحركة مقصودة، بحركة مدروسة فوق ثنايا الثوب عند الصدر فتظهر شكل الثدي، فكانت بذلك تظهر بشكل غير مباشر حسية رقيقة مثيرة.

مسك كل منهما جسد الآخر وتلامسا طويلاً في صمت مطبق، ثم شعر إدواردو برغبة عارمة في الولوج بين ساقيها الليّنتين وانغرس بنهم في الأيكة السمراء.

واستسلما لشعور طاغ بالشبق. كانت كلارا تفكر وقد شعرت بأنها خائرة القوى، كم امرأة تمنت أن تقضي ليلة مع إدواردو؟ وكم منهن قضت بالفعل؟ تذكرت أن إحدى صديقاتها قد أخبرتها ذات مرة بأنه لو عرف الجميع التجارب الجنسية للآخرين لما استطاع أحد إقامة علاقة مع آخر.

وقد بدا لها على الرغم من تجاربها السابقة أنها تعيش في حلم، حلم لا يخلو من الحسية، فقد كان لإدواردو جسد رائع.

لم يكن فقط – كما كان يسميه كارل كروس– انحرافًا لغويًا يعبر مجازًا عن الحب: "هناك طرق متعددة لممارسة الحب..وهناك الجنس الذي يمارس في الظلام يلامس حافة الانحراف ويطغى عليه الشعور بالخطيئة. وهناك الجنس المشرق الهادئ؛ مصدر ليس فقط للمتعة الحسية، وإنما أيضًا منبع للمتعة الروحية والخيال الخصب".. ولمرة وحيدة فقط، عندما كانت كلارا فتاة صغيرة شعرت بالخوف من حجم العضو الذكري، كانت في المرحلة الثانوية، وقد ذهبت في رحلة مدرسية إلى بومباي بمدينة نابولي بصحبة مدرس تاريخ الفن، وفي بومباي بمنزل فيتي وأمام لوحة حائطية تنتمي إلى القرن الأول بعد الميلاد وكانت اللوحة تمثل بريابس وهو يزن عضوه الذكرى وكان فائق الحجم.

كان الطلبة يعرفون جيداً قصة بريابس، ففي أثناء قراءة الفصل المؤثر من الإلياذة والذى يحكى عن خروج الملك بريام من المدينة متوجهًا إلى خيمة أخيل ويطلب منه إعادة جسد ولده إيتوري ليقوم بدفنه.. عندئذٍ قام أحد زملائها فيدريكو وكان شارد الذهن بنطق بريابس بدلاً من بريام، فانطلق المدرس في فصاحة مظهراً ثقافة واسعة يوضح الفرق بين بريام وبريابس، ما شد انتباه جميع الطلبة، بخاصة الإناث.

أيضًا ملك طروادة المشهور والد هيكتور وباريس اشتهر بقدرته الجنسية؛ وقد أنجب خمسين ولداً من محظياته المتعددة، بالإضافة إلى زوجاته وعدد كبير من الإناث من بينهن كاسندرا وبوليسنا الابنة الصغرى التي تغنى بها يوربيديس، وسينيكا التي وهبت نفسها طبقًا

للأساطير إلى أخيل في مقابل رفات أخيها هيكتور، ثم ضحت بنفسها على مقبرته بعد الاستيلاء على طروادة.

وكان بريابس خبيرًا بأمور الجنس والغرام، كما تذكر حكايته المشهورة مع الحورية لوتيتة التي ذهب لزيارتها ليلاً ثم أيقظها نهيق الحمار فانتبهت وتحولت إلى سمكة لوط كان يرمز إليه بعضوه الذكرى لضخامة حجمه بالنسبة لباقي أعضاء جسمه، وكان في الغالب يتم تصويره بشكل مبالغ فيه وفج، وكانوا يقدمون في معبده الحمار كقربان لأن اليونانيين كانوا يعتبرون الحمار رمزًا للجنس الصارخ، وكانت قد سمعت عن عضو الحمار من صديقتها دوتوريتا التي اعتادت السفر في أثناء الإجازة وقضاء الوقت مع جديها في الريف، ورأت ذات يوم العضو الذكري لحمار جارهم الفلاح الذي كان يقطن على مسافة ليست ببعيدة عن بيت جديها. وكانت مدرسة الأدب في المدرسة الثانوية قد تحدثت عن معالجة الكاتب الإيطالي الكبير إيميلو جدة للموضوع وقرأت فقرة عن ذلك.

كل تلك الكلمات الرقيقة التي كان يهمس بها إدواردو لها بعد ذلك العناق الطويل الصامت، هل كان يرددها للمجاملة؟ ربما فعل ذلك مع كل النساء اللاتى قابلهن، ولكنها فكرت الآن وبعد أن نال ما أراد، ما حاجته إلى كل هذا الاهتمام والكلمات الحانية، فكل الرجال الذين قابلتهم من قبل كانوا يولون ظهورهم دون اعتبار للمرأة بجانبهم، من غير المعقول أن يتظاهر إدواردو إلى هذا الحد، أي ممثل بارع لم يكن

ليستطع إتقان دوره بهذا الشكل، واقتنعت أو أرادت إقناع نفسها بأن لمسات إدواردو تحوى جزءًا كبيرًا من الحقيقة، وكانت في اليوم السابق قد قرأت حوارًا مع إحدى الكاتبات نشر في إحدى المجلات وفيه تتحدث بسخرية عن تفاهة الرجال.

لم تكن كلارا تقرأ تلك المجلة، ولكنها اشترتها من المطار بفيوميتشينو بروما لأنها رأت فيها خبرًا عن بودابست، وكي تهرب بقراءة أخبار تافهة تشغلها عن ركوب الطائرة والذي غالبًا ما يصيبها بتوتر .

وقد تحدثت الكاتبة بتهكم عن غيرتها من الرجال لقدرتهم؛ أو بمعنى آخر دون تعمد الإهانة لغبائهم وتبسيطهم للمشاعر ولما يقع حولهم من أحداث، بل وعدم قدرتهم على النظر داخل نفوسهم.

لم تستطع أن تخمن في بعض لحظات الصمت عما يفكر فيه إدواردو، وإن كان استمر في النظر إليها مثل مفتون، ربما أراد أن يحكي لها عن لوحة كازوراتي وعن توقفه أمام تلك اللوحة وتعليقه الأحمق، فعلى الرغم من أن جسدها العاري الرائع الذى بدا أمامه الآن يختلف كثيرًا في تفاصيله عن تلك الفتاة، أراد أن يريها اللوحة والشبه الكبير بينها وبين الفتاة العارية، ربما أراد أن يقول إنه أخيرًا وجد امرأة تشعل النار في رماده الخامد. كيف يفكر بهذا الشكل رجل مثله طاف وجال وأحب كثيرًا من النساء، بل وأحبته كثير منهن؟ رجل يعرف كثيرًا عن حيل النساء وخيانتهن.

وقد ظلا مستيقظين حتى طلوع الفجر مثل اثنين من المراهقين، ينتظران أول شعاع ضوء فوق سطح نهر الدانوب الهادئ في أثناء استيقاظ المدينة. كان نهر الدانوب يبدو لكلارا أزرق متسعاً مثل البحر. وبينما كانا ينظران من النافذة إلى النهر وقد احتضن كل منهما الآخر، تذكر إدواردو المشهد الأخير من مسرحية لبيرانديللو كان قد شاهدها منذ فترة وجيزة بأحد مسارح روما. عندما يهرب إليجا مستاء بعد مشاهدة الفصل الثاني من المسرحية التي تؤديها دوناتا. كانت دوناتا قد أدت المسرحية حتى تلك اللحظة بشكل بالغ السوء، فقد اختلط واقعها كامرأة مع دورها بالمسرحية.

أما إليجا فقد صدمته رؤية دوناتا في دور مارتا وقد غطت وجهها المساحيق، وقد اختلفت عن المرأة الحقيقية التي شاهدها عارية، على سجيتها.. لم ينجح العم في إقناعه بالعدول عن رأيه.

يحزم إليجا أمتعته ويهرب إلى الشاطئ.

تصل دوناتا إلى الفندق وتكتشف اختفاء حبيبها. تبقى وحيدة وتتحول حجرة الفندق إلى خشبة مسرح كأنها في حلم في خيالات رؤيا. وعندما ينتهي الحلم تنتفض دوناتا واقفة فاردة ذراعيها قائلة: «هل هذا أيضًا حقيقي، أم لا توجد أي حقيقة. الحقيقة أنه ينبغي أن نخلق لأنفسنا حقيقة وعند ذلك فقط نجدها".

همس بالمقطع الأخير من مسرحية بيرانديللو في أذن كلارا التي نظرت إليه بدهشة.

سألته كلارا: بماذا تفكر؟ لا أدري لماذا تذكرت مقطعًا من مسرحية بيرانديللو كان يحكى فيه عن قصة حبه لمارتا آبا.

كان في نفس عمري تقريبًا عندما هام حبًا بممثلة المسرح الشابة، ربما تبلغين عمر مارتا.

أضافت كلارا: "وما دخل العمر الآن؟".. احتضنها وطبع فوق شفتيها قبلة طويلة وقادها إلى الفراش، وهذه المرة مارسا الحب دون مقدمات واستسلمت تمامًا له بكل خلجات جسدها وروحها.

الفصل السادس

وفي مدينة بلاتونفورد ذهبا بالسيارة بعد أن استقلا الحافلة من بودابست وسارا بمحاذاة البحيرة مارين بمدن مختلفة، وقد توقفا بضع دقائق بالفندق لتسجيل الأسماء ووضع الحقائب.

ثم انضما إلى الآخرين للقيام برحلة بالمركب، وقد قام صديقه الصحفي بإسهاب في الحديث ببلاغة وتحدث عن دير تياحني وعن أقدم نادٍ بحري في المجر، والذي أقيم هناك في مدينة بلاتونفورد؛ ثم تحدث عن بلاها لويزا حيث قضت سنوات من حياتها في فيللا بتلك المدينة، والتي أصبحت فيما بعد من الفنادق الشهيرة وكيف وصل الشاعر كوازيمدو إلى المدينة، كان بصحبتهم أيضًا مدير المعهد الثقافي والأستاذ بجامعة سيزد وابن الشاعر كوازيمدو أليساندرو. وكانت الجائزة الأوروبية في ذلك العام قد حصل عليها شاعر صقلي من منيو، إلا أنه لم يذهب معهم وبقي بالفندق مع زوجته وحفيديه اللذين اصطحبهما معه. وقد تعرف إلى عمدة البلدة وشخص آخر ذي لحية شقراء ووجه محمر تبدو عليه اللا مبالاة، كان أحد المنظمين الأساسيين للحدث مع مساعدته الشقراء الطويلة، زرقاء العينين. وقد تعرفا أيضًا

إلى شاعر من أصول ترانزيلفانية، كان رجلاً ظريفا يشبه كثيراً تينو بوتسيللي، وقد اصطحب معه زوجته النحيلة وكانت أيضًا ذات عينين زرقاوين ساحرتين، وحضر أيضًا بصحبة زوجته الأستاذ الجامعي والمترجم الذي أسس للجائزة مع شاعر من مدينة برينزولو، وكان ذلك المترجم قد تدهورت صحته وفقد ذاكرته تماماً.

حضر الحفل أيضًا نائب في البرلمان الإيطالي كان إدواردو يعرفه جيداً؛ لأنه كان من مدينة أوربينو وكان رئيسًا لمؤسسة فنية، وقد فوجئ إدواردو أن مدينة أوربينو تربطها توءمة مع هذه المدينة المجرية، وكعادته ظهر ذلك البرلماني في كامل أناقته، مرتديا ببيونة أنيقة.

وقد تذكر إدواردو أنه قد قابله آخر مرة في مناسبة مسابقة " شيرتمان" بصحبة فنان تصوير شهير يدرس بأكاديمية الفنون الجميلة بروما. كان السفير رجلاً مهذبا شغوفًا بالقراءة ويقدر النساء الجميلات، اللاتى لم يخلُ المركب منهن في ذلك الصباح. العمدة المستنير المثقف كان أيضًا نائبًا بالبرلمان، وقد شعرت كلارا بالضيق من تلك الفتيات المبالغات في إظهار جمالهن؛ ودعت إدواردو إلى مؤخرة السفينة لمشاهدة المنظر الطبيعي للتلال حول البحيرة. وفي أثناء المؤتمر الصحفي تم الإعلان عن كتاب لصحفي إيطالي بالاشتراك مع ابن الشاعر كوازيمدو يحكي عن العلاقة المعقدة بين الأب والابن، وبعد الجولة بالمركب والإعلان عن أسماء الفائزين انتقل في طابور من السيارات إلى دير تيهاني، حيث عقد الشاعر الصقلي ندوة عن بينديتيى وأوروبا، وقد

تحدث بخفة وعذوبة وبلاغة عن جسد الإنسان وعن معنى الروح عندما تغادره ونال حديثه إعجاب المستمعين وتقديرهم. وفي المساء ذهبوا جميعًا إلى مزرعة عنب فوق التلال، وكانت المعصرة تسمى باسم إيطالي ربما فيجولا، لم يكن إدواردو يتذكر بالضبط. وهناك تذوقوا أنواعًا كثيرة من النبيذ الجيد، وبخاصة النبيذ الأبيض، وكلارا التي تذوقت أنواعًا كثيرة خرجت من قبو النبيذ وقد لمعت عيناها وهمست ببعض التلميحات الجنسية لإدواردو.

وعلى الرغم من أنهما في بادئ الأمر كونا ما يشبه الزوجين فإنهما فضلا أن يبقى كل منهما في بيته، فعادت كلارا إلى بيتها في كيتى وكانا يتحدثان تليفونيًا كل يوم تقريبًا، وكانت كلارا تلحق به كل حين في بودابست، وقاما بكثير من الرحلات معًا، حيث زارا بالسيارة بريسة، دبريسن، بل ووصلا إلى براغ، حيث ذهب إدواردو عدة مرات لتغطية إذاعية وتليفزيونية لعدة أخبار منها زيارة أندريتوي؛ ويتذكر عندما نظر أندريتوى إلى نهر المولدوف وأنشد بعض أبيات دانتي اليجيرى عن المجر فى المطهر:

كان عاهل البلاد التي تنبع منها المياه

التي تسكب المولداف في الألب والألب في البحر .

ثم أكمل حديثه قائلا إلى آخر القصيدة ليتجنب تكملة الأبيات القائلة:

كان اسمه أوتاكيرو وكان في الأقمطة،

يفوق كثيرا ابنه فنسيسلاف

ذلك الملتحي الذي كان يقتات من الكسل والفجور.

ويمدينة برنو زارا قلعة سبيلبيرج - وهى الآن متحف - القلعة التي حبس فيها بيليكو وماورنشيللي، وقد تأثرت كلارا كثيراً عند رؤية زنزانة بيليكو، وتذكرت قراءة «محبسي» التي قرأتها مع جدتها في أثناء فترة المراهقة، وكيف حسدت سيليفو بيليكو لأنه استطاع في أثناء حبسه أن يحفظ كل يوم أنشودة كاملة من الكوميديا الإلهية لدانتي، بينما هى تواجه صعوبة كبيرة في مجرد حفظ بعض الأبيات القصيرة، ومن أكثر الفقرات التي تأثرت بها كان وصف بيليكو لشجاعة مارونشيللي في أثناء بتر ساقيه؛ وكيف أهدى الجراح زهرة بعد العملية ما جعل الطبيب يجهش بالبكاء.

الفصل السابع

بعد أن انطفأت جذوة العاطفة بقي إدواردو وكلارا صديقين، لم يحكِ لها عن ظهور امرأة جديدة في حياته، كما أنها لم تخبره عن ولعها بآخر، زميل لها أمريكي الجنسية قابلته في أثناء مؤتمر بالولايات المتحدة الأمريكية في بوسطن.

كانت الفترة التي بدأ إدواردو فيها يتأمل أحواله وحياته الصاخبة المضطربة؛ كان يشعر بأن الوقت قد حان ليبدأ حياة جديدة، وكان يود إعداد المجلد الثاني عن السير الذاتية للكُتّاب المعاصرين وتذكر أن بإمكانه الاستفادة من وجود مؤرخ مشهور في بودابست يعيش بصفة دائمة بباريس، ونظراً لظروف متعددة لم ينجح قط في إجراء حوار معه، وأيضاً يوجد اثنان من الكُتاب المجريين الكبار المشهورين، وربما سنحت له الفرصة لتعميق معرفته بساندرو مراي، واحد من الكُتاب المفضلين لديه بقراءة الروايات التي صدرت بعد رواية «اعترافات برجوازي».

وقد وافق من فوره على طلب مدير المجلة الأسبوعية، وبدأ في عملية البحث وجمع المواد اللازمة للأرشيف، وبينما كان يشاهد أحد أفلام «مانجيلي» الوثائقية القديمة، المعروضة على إحدى قنوات شبكة «الراي»

الإيطالية، سمع اسماً جعله يتذكر مجدداً تلك الفتاة المجرية التي تعرف عليها في فلورنسا التي كانت تحمل كتاب بيوفيني في يدها، كانت الفتاة تعتبر هذا الكتاب كما يرى مؤلفه فهرساً لإيطاليا.

كان إدواردو قد نسيها تماما، بعد أن حاول لفترة أن يجدها، وعندما كان يواعد كلارا، لم يكن يشعر بحاجته إلى علاقات جديدة، كما أنه فقد بياناتها وكيفية الاتصال بها عندما سُرقت حقيبته من صندوق السيارة بإحدى استراحات الطريق السريع بين روما وفلورنسا؛ وفقد معها بطاقته الائتمانية وأجندته والدفتر الكبير الممتلئ بملاحظاته، إلا أنه تذكر تلك الفتاة، بينما كان ينظر إلى الشاشة، فعادت الأحداث لذاكرته وكيف أنه بعد أيام قليلة من لقائهما الأول، استطاع في ليلة واحدة أن يكتب قصة كاملة، وكان أكثر ما أثار إعجابه في أثناء مشاهدة الفيلم الوثائقي كلمات إيندرو مونتانيلي، عندما تحدث عن ذكرى تلك الأيام المروعة من عام ٥٦ فأراد تدوينها:

«لقد عشنا وهماً كبيراً، عشناه ونحن نعلم بوصفها كأجانب أنه وهم، ولكنهم للأسف لم يفهموا ذلك، كانوا يعتقدون أنهم انتصروا حقاً، وقد دفعهم الحلم إلى آفاق بعيدة، ورغم كل ما حدث، كانت أياماً رائعة، حين ساد الاعتقاد بانتصار الحرية ونهوض الأمة المجرية مجدداً، أعتقد أنها لحظات لا تنسى وأنها من أفضل صفحات ما بعد الحرب العالمية الثانية».

وعلى الفور، أخذ إدوارد يبحث بين أرفف مكتبته بين الكتب المبعثرة عمّا يمكنه أن يجده عن المجر عام ٥٦ وبين المجلدات الكبيرة، وجد أمامه حافظة صفراء اللون مكتوبًا عليها «رحلة أوروبا».

لقد احتاج منه الأمر إلى عدة أيام كي يجمع ويراجع المادة العلمية والأفلام.

تذكر إدواردو بوضوح ظهيرة ذلك اليوم الذي قضاه مع جيرتي بفلورنسا، وكيف أخبرته بظهورها بشكل عابر في أحد الأفلام الوثائقية التي أخرجها للتليفزيون الإيطالي فيتوريو مانجالي في ذكرى مرور ثلاثين عامًا على الثورة، حين عاد الصحفي للمرة الأولى إلى بودابست، فقد كانت جيرتي جالسة مع والدها في أحد مقاهي وسط المدينة وظهرت في الخلفية، وقد تعرف على والدها في أثناء عرض الفيلم، أحد أصدقائه القدامى من الذين هربوا إلى إيطاليا ويعمل الآن طبيبًا بقسم استقبال الطوارئ؛ نجح إدواردو في العثور على نسخة من الفيلم الذي أرسله مانجيلي إلى بودابست في عام ٨٦، وبينما كان يجري حديثًا صحفيًا مع أحد زملائه، والذي كان يعمل مراسلاً لجريدة «ألاونيتا» في العاصمة المجرية، لاحظ وجود طفلة خلفه، كان يشع الفضول الشديد من عينيها الخضراوين الواسعتين، إلى أن جاء والدها وأمسك بيديها، ثم اختفيا تمامًا خلف أحد القصور.

إدواردو الذي قرأ كثيرًا من الكتب عن الثورة؛ كان يعجبه كثيرًا كتاب إيليريو فيوري «هنا بودابست»، وأيضًا كتاب هو بحق أفضل ما

كتب عن ثورة المجر، ووجد أن من أجملها ما كتبه للويجي فوساتي الذي نشر عام ١٩٥٧، فضلاً عن كتاب فيليبو رافائيلي «ليالي كادار»، وكتاب سيرجو بيروكي؛ وقد سعى إدواردو للاتصال به هاتفيًا لإعجابه بما كتبه عنه مونتانيللي في أحد مقالاته، وكان اسم المقال الذي ظهر في جريدة «الكورييـر ديلا سيـرا» وكـان يحـمل عنوان "ثائر وطنـي في بودابست".

كان مونتانيللي يتحدث بمودة وإعجاب عن هذا الثائر السابق الذي أصبح اشتراكيًا، ونجح إدواردو بعد محاولات كثيرة في التحدث معه هاتفيًا وأعرب له عن رغبته في لقائه، لكن بيروكي اعتذر عن اللقاء لمرضه الشديد؛ ولأنه بالفعل تحدث بكل ما لديه عن ثورة المجر ٥٦ في كتابات ومناسبات كثيرة، وقام كذلك بعرض القصة من خلال الصور في بعض المعارض، وأتيح لإدواردو قراءة إحدى القصص التي تروي أحداث هذه اللحظات التاريخية؛ وكانت بعنوان «حيث كانت تقطن روح العالم» ووجد القصة في كتاب صدر بعد أربعين عامًا من الثورة لأحد الأدباء الإيطاليين المؤيدين للحركة المجرية، وكان اسم الكتاب «المجر ١٩٥٦ الثقافة تتساءل»، إلا أن العمل الذي كان له الأثر الأكبر في نفسه هو «مهنة البحث عن الحقيقة» لأندرو مونتانيللي.

كما قرأ «المسار الجديد» لماريو بوميليو، و«باب الطوارئ» لإنياسيو سيلوني، و«المجر لحن الغضب والحب» لجلوريا فيكتيس، كما اطلع أيضًا على بعض الكتب التي نشرت حديثًا مثل: «بودابست ١٩٥٦ الثورة

الأولى ضد الإمبراطورية السوفيتية» لكاتبه فيكتور سيبيستاين نجل أحد اللاجئين المجريين وقد ترك المجر وهو ما زال طفلاً، كان من السهل على إدواردو أن يتذكر اسم عائلة هذا الكاتب؛ لأنه كان كذلك لقب إحدى المغنيات الشعبيات المشهورة التي كانت تربطه بها صداقة، والتي غنت الموسيقى التصويرية لفيلم «المريض الإنجليزي» أحد أشهر أفلام مينجيلا. كان فيكتور صحفيًا سبق له أن عمل مع مختلف الصحف البريطانية بوصفه مراسلاً في مختلف عواصم وسط أوروبا في وقت سقوط الاشتراكية عام ١٩٨٩، كما حصل إدواردو على أحد الكتب، والذي تسبب في ضجة كبيرة من سنوات قليلة، إذ كان يحتوي على وثائق قام بجمعها اثنان منذ المؤرخين العسكريين ببودابست هم جينو جيوركي، وميكلوس هورفاس، اللذين شرحا للمرة الأولى الدور العسكري الذي قام به الجيش السوفيتي في المجر، مرفقا بذلك بيانات شديدة الأهمية، حيث قدم مؤلفا الكتاب نتاج الأبحاث التي قاما بها لسنوات طويلة على المستندات المحفوظة، كما بحثا أيضًا عن قادة العمليات العسكرية السوفيتية، ونشر الكتاب مستندات وتلغرافات سرية، وقد نجح إدواردو في مقابلة كلا المؤرخين العسكريين.

ثم انتقل إلى إيطاليا لبضعة أيام، حيث استضافته الأكاديمية المجرية بروما في المبنى الرائع الكائن بقصر فالكونيري، وكان يديرها رجل كثيف اللحية، يشبه إلى حد كبير ماتسيني، وعلى الرغم من مظهره الصارم فإنه في حقيقة الأمر كان إنسانًا ودودًا جدًا، أطلعه على كثير

من الأعمال المهمة كما أهداه اثنين من أعماله؛ وكان اسما هذين الكتابين «ذكريات مجرية في إيطاليا»، و«مئة عام من العلاقات المجرية - الإيطالية»، كما أطلعه على مواعيد إقامة كثير من الفعاليات والاحتفاليات التي ستقام ببودابست، وبالأخص المؤتمر الدولي الذي تنظمه سفارة إيطاليا بالتعاون مع المعهد الثقافي الإيطالي ومعرض للصور الضوئية والمستندات المرتبطة بتلك الأحداث المأساوية.

الفصل الثامن

استيقظ إدواردو في وسط الليل، وشرع من فوره في كتابة تلك القصة التي كانت تراوده منذ فترة. كانت الكلمات لا تبرح ذهنه، وقد حاول من قبل كتابة عمل روائي، إلا أنه لم يكن يجد الإيقاع المناسب فتفتر همته. أما الآن فقد بدت كل الأمور واضحة له، بما يكفي لملء صفحات من شاشة الكمبيوتر، فتح الكمبيوتر المحمول وشرع في العمل. كان يقطن على بعد خطوات قليلة من فيللا تورلونيا؛ لذلك كان الهدوء يحيط بالمكان، ما يسر له مناخًا ملهمًا لسرد أفكاره. وفي الحديقة المجاورة كانت أطراف أشجار الصنوبر التي جاوزت في ارتفاعها الطابق الثاني ساكنة تمامًا، ظل يكتب لساعات طويلة دون أن يشعر بأي تعب. وسالت الكلمات مثل الزيت من بين أطراف أصابعه، وامتلأت شاشة الكمبيوتر بكلمات وحكايات جيرتي، بطلة رحلة البحث الطويلة عن الهوية وعن جدها إمري.

كانت جيرتي قد ولدت في بلدة تبعد ساعة واحدة بالقطار عن بودابست وعلى بعد بضع خطوات من محل ولادة فرانز ليسزت، حيث هربت جدتها لأمها لهذا المكان بعد هروب الزوج إمري، مؤرخ الأدب

الإيطالي وأحد أبطال ثورة ٥٦ إلى إيطاليا. وأذاق البوليس السري جدتها ووالديها العجوزين الأمرّين بعد ذلك، فعانت من الملاحقة والاستجوابات والإهانات التي لا نهاية لها.

كانت جيرتي قد أتمت عامها الخامس والعشرين، وانتهت من دراستها الجامعية في تاريخ الفنون من أكاديمية بودابست، وكانت رسالتها الجامعية عن بيرانيزي، كما قامت بدراسة مجموعة من الصور الفوتوغرافية الإيطالية المحفوظة بمكتبة الأكاديمية، وهى الآن تعد رسالة الدكتوراه بعنوان «أسطورة أوروبا في فنون القرن العشرين». كانت تلك الفكرة قد واتتها خلال إحدى الرحلات إلى جزيرة كريت، إلا أن حلمها الكبير هو إعادة رسم حياة جدها، وإن كان ذلك بعد مئة عام من ميلاده وبعد وفاته في ستوكهولم عام ١٩٨٨. كانت قد زارت جيرتي لأيرلاندا، حيث كانت تعيش آخر رفيقات جدها وتحتفظ بمذكراته، كما أنها حصلت على بعض الكتب التي كانت ترافقه في رحلاته في مختلف أنحاء أوروبا. وفي عام ٥٦ حين اضطر إلى الاختباء في أوروبا بعد قصة هروبه المذهلة، ترك الجد إمري زوجته جوديت وابنتيه ليفيا ومونيكا وكانتا في الثانية عشرة والثالثة عشرة.. وجيرتي ابنة ليفيا.

واستكمل إدواردو الكتابة حتى استيقظت المدينة وغزت الضوضاء الحى. كان الاسم الذي أعطاه للملف عند حفظه بعد الانتهاء من كتابته «رحلة أوروبا».

راودته فكرة تأليف الكتاب أولاً عندما كان في فلورنسا؛ يغطي أحداث معرض كبير حول تاريخ الأسطورة الأوروبية في معرض فنون أوفيتسي، وبينما كان يستعد لتصوير التغطية الإخبارية التي ستذاع في نشرة أخبار قناة «تي جي ١» الساعة الثامنة مساء، صادفته هذه الفتاة التي كانت تتجول وحدها بين صالات المعرض الكبيرة التي كانت تستعد لاستقبال وزير التراث والأنشطة الثقافية لافتتاح المعرض. وجدها إدواردو منتشية إعجاباً بلوحة أوروبا لجويدو كانياتشي، امرأة تنبض بالجمال الحسي، وعيناها تتطلعان إلى السماء. كانت هذه اللوحة هي ما يبحث عنه إدواردو لأنها كانت مطبوعة على غلاف كتيب المعرض. كانت تسوي بإحدى يديها شعرها الأحمر الذي يداعبه الريح، وبيدها الأخرى تمسك بالثوب الذي يغطي جسدها الفتان من عند الخصر إلى أسفله. كان رأس الثور المغمض العينين تكسوه الورود ويبزغ أحد قرناه من خلالها. كما كانت بطن أوروبا مزدانة بالورود. ونرى في هذه الرؤية الحسية والملحمية - كما تشير الكتابة التوضيحية أسفل اللوحة - البطلة الأسطورية تهيمن من خلال تصوير حسي وعقلاني في آن واحد، على المشهد بأكمله؛ حيث لم يظهر فيه من الثور الأنيق ذي المظهر الوديع الحالم سوى الجزء الأمامي من رأسه.

كانت الريح قد عبثت بشعرها وتكاد تسقط الإكليل التي زينت به رأسها؛ وتحاول أوروبا الإبقاء عليه في مكانه بيدها اليمنى، بينما خلعت الريح رداءها وتركت نصف جسدها الأعلى وصدرها وجزءاً من وسطها

عاريًا. وفي غنج، تحاول الإمساك بطرف ما تبقى على جسدها من رداء، بينما تبرز من تحته الأزهار والورود مثل تلك التي تزين رأس الثور. لم تكن تحتضن أو تتشبث بالثور القابع بجسده كله تقريبا تحت المياه نفسها التي يبرز منها نصفها الأعلى، بل كان الثور الذي يكاد يلامس نهديها بأحد قرونه، هو من يمد بوزه نحوها بشهوانية. وفي الخلفية يُرى بالكاد أشخاص على مسافة بعيدة يتحدثون فيما بينهم فوق صخرة ممتدة في البحر علي الجانب الأيمن من اللوحة. ونرى تفسير بياض جسدها وصورة جانب وجهها مفسرين في ملحوظة تحمل الحرفين الأولين (م، ب)، فقد كانت اللوحة من ناحية تقربها من صورة البطلة الكلاسيكية، ومن ناحية أخرى كانت تعبر عن شهوانية جامحة. وقد وصلت اللوحة إلى أيدي مالكها الحالي في عام ١٩٦٢؛ وأصبحت جزءًا من المجموعة الخاصة بموليناري براديللي من سوق مدينة فينيا، والتي وصلت إليه من نظيره الفرنسي.

قال إدواردو للمصور الذي كان يرافقه منذ سنوات طويلة وتوطد بينهم التفاهم: «انظر إلى تلك الفتاة، هي الأخرى لا نرى منها سوى جانب وجهها فقط، فلنبدأ بهذه اللوحة. هيا فلنبدأ التصوير من هنا، صورها عن قرب أولاً ثم تحرك سريعًا بين باقي اللوحات المعلقة على كل حوائط القاعة. في الواقع، أريدك أيضًا أن تصور جانبًا من وجه الفتاة، بينما هي تنظر للوحة»، كانت تلك هي اللحظة التي أدارت فيها وجهها باتجاهه وصوبت إليه عينيها العميقتين التي ظلت صورتهما عالقة بذهنه

لمدة طويلة. كانت عيناها شديدتي الشبه بعيني الأميرة سيسي في الدور الذي لعبته رومي شنايدر.. فتقدم إدوارد نحوها وعرفها بنفسه. كان من الواضح أنها أجنبية، حتى من ملابسها، إلا أنها كانت تتحدث الإيطالية بطلاقة. وقالت إنها مجرية وإنها كانت تعرف هذه اللوحات جيداً؛ لأنها درستها من أجل رسالة الدكتوراه التي كانت تستعد لتقديمها. واقترح عليها إدوارد مبتسماً أن تعاونه في اختيار اللوحات للتقرير الإخباري الذي كان يعده. وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث، ركز المصور العدسة على وجه الفتاة والذي كان يغطي جزءاً من وجه للإله "أوروبا" في لوحة كانياتشي. كانت جرتي تدون ملاحظاتها في مفكرة صغيرة وكانت تكتب بأحرف صغيرة ومتلاصقة، كانت تسند المفكرة فوق كتاب مهترئ الغلاف بعض الشيء؛ فأثار ذلك فضول إدواردو وسألها عما الذي تقرؤه. كان الكتاب الطبعة الأولى من «رحلة في إيطاليا» لجويدو بيوفيني الصادرعن دار نشر موندادوريانا عام ١٩٥٧.

وقالت: «إنه يعجبني كثيراً، بل وإنني قرأت بعض أجزائه عدة مرات. إنه واحد من الكُتب القليلة التي نجحت في الحصول عليها من مكتبة جدي إمري وبه ملاحظات كثيرة كتبها جدي الذي اشترى الكتاب فور صدوره وكان يستخدمه كدليل، وأنا أيضاً أحمله معي كل مرة أسافر فيها إلى إيطاليا. ووصف الكتاب مدينة فلورنسا بالمدينة النحيلة والطولية، جميع أهلها من المحافظين حتى الثوريين منهم؛ وربما كان هذا هو سبب اختيار جدي لفلورنسا للعيش بها، وهي تبدو قريبة الشبه

بجسم الإنسان. وقام بيوفيني بتشبيهات كثيرة، فعلى سبيل المثال شبه مدينة بولونيا بأنها (سمينة ومستديرة)». وبينما كان إدواردو ينظر إلى لوحة كانياتشي؛ أخذ يردد بعض الأبيات لريمباود والذى كتبها للإلة «أوروبا»، كان إدواردو قد حفظ هذه الأبيات بصعوبة؛ لأنه كان ينوى أن يقولها، ربما بعضها فقط، في التحقيق الإخباري. كان في كل مرة يقوم بعمل بحثي دقيق ويجمع معلومات، كان في الأغلب يحصل عليها من مكتبته الزاخرة؛ ثم يكتب النصوص ويحفظها عن ظهر قلب، ليبدو الأمر كما لو أنه قد اختلق الأمر في لحظتها، إذ لم يكن يحب القراءة من الورق:

زيوس الإله تحول إلى ثور لتتهادى

فوق ظهره الجميلة العارية

ألقت «أوروبا» الفتاة بذراعها الأبيض

حول عنق الإله الرشيق المرتجف

لحظها بنظرة هائمًا

فدانت بورد خدها نحو جبهته

مالت إليه شاحبة الوجه وأغلقت عينيها

وذابت في قبلة إلهية

وانتفشت خصلات شعرها الذهبية

عند تلاطم الأمواج.

أما إدواردو فقرأ لها آخر بيتين بصوته العميق المدرب أمام الميكرفون بإحساس خاص؛ كما كان وحده ألبرتو لوبو يستطيع أن يفعل في الماضي. ولما كانت والدة جيرتي تريد أن تطلق عليها اسم «أوروبا» ماريا وفي سجل المواليد لم يسمحوا لها بذلك حتى اضطرت لتغييره فاختارت لها اسم جيرترود؛ لشدة تأثرها بإحدى الكاتبات التي كانت تحبها كثيراً، وكانت تعمل على ترجمة أعمالها من اللغة الإنجليزية، كما كان الاسم يذكرها بباحثة وعالمة كبيرة من مدينة براغ كانت قد قرأت سيرتها الذاتية الطويلة. وفي المنزل كان الكل ينادي جيرترود باسم جيرتي. كانت الفتاة قد زارت إيطاليا وطافت في كل أرجائها حين كانت طالبة بالصف الأول في الأكاديمية، كانت جيرتي تتردد كثيراً على المعهد الثقافي الإيطالي لتحسين اللغة الإيطالية التي درستها في المدرسة الثانوية ولحضور مختلف العروض؛ وتعرفت هناك على فني الإضاءة وكان اسمه جويدو، كان جويدو شاباً وسيماً طويل القامة، كان شعره وعيناه كاحلة شديدة السواد وبشرته قمحية بعض الشيء. ودعاها جويدو لتناول العشاء مع الفرقة، وذهبوا إلى مطعم صغير بوسط المدينة وسعدت كثيراً بتمضية الوقت معهم، فقد كانوا شباباً مرحاً وكلهم إيطاليون.. كما أنهم أسرفوا في الشراب، وبعدها أراد جويدو أن يخرج معها في نزهة على الأقدام حتى كوبري السلاسل. وبينما كانا على أعلى الكوبري ضمها إليه وقبلها بعمق وحرارة حتى إنها قاربت أن تفقد أنفاسها؛ وأحست حينها برعشة لم تراودها من قبل مع أي شاب آخر، ثم ذهبا إلى منزل جيرتي.

كانت جيرتي تعيش وحدها في تلك الفترة، في منزل استأجرته من الباطن من إحدى زميلاتها التي سافرت للتدريب في لندن. وعلى الفور مارسا الحب لأكثر من مرة بعاطفة جارفة. وفي الصباح غادر جويدو، لكنه داوم على الاتصال بها هاتفيًا كل مساء. كان أكبر منها بكثير وصرح لها بأنه أحبها؛ أما هي فلم تصدقه في بادئ الأمر، لأن بعض صديقاتها اللاتي عرفن شبابًا إيطاليين قلن لها إن الإيطاليين يقولون هكذا دائمًا حين يشاهدون امرأة، بينما الشيء الوحيد الذي يجول بعقولهم هو ممارسة الجنس. وبدأت جيرتي تحلم بجويدو كل ليلة وكفت عن ممارسة الحب مع بيتر صديقها في ذلك الوقت وكان يدرس الفلسفة. كان بيتر لا يتحدث عن شيء آخر سوى كنت وهيجل، وعندما كانا يمارسان الحب، كانت تبدو عليه الرغبة في الاعتذار في كل مرة يلج داخلها.. كان يحبها حقًا، إلا أنها كانت تبحث عن تجارب أخرى في تلك الفترة، كانت تريد أن تفهم أو ربما كانت تريد ببساطة أن تعيش حياة أكثر غزارة. أما مع جويدو، فقد كان الأمر مختلفًا، ففي الليل تحدثه عن الموسيقى والمغنين الإيطاليين المشهورين الذين صاحبهم جويدو في أنحاء إيطاليا في الساحات والميادين، كما كانوا يتحدثون عن الجنس والرغبة. كانت طريقة جويدو في الحديث مباشرة ومفعمة بألوان الحياة.. وكانت هذه من أسباب إعجابها به. كانا يمارسان الجنس عبر الهاتف.. فمنذ تلك الليلة التي قضتها جيرتي معه والتى كانت تتمنى أن تدوم للأبد؛ وهى تحلم به وتستيقظ في قلب الليل لتداعب جسدها، وهو الأمر الذى كان يجعلها تشعر باللذة والهدوء، فلم تعد ترغب في رجال آخرين.

وأصبحت جيرتي لا تفكر في شخص آخر غيره، وبمجرد انتهائها من امتحانات الثانوية، لحقت به ضد رغبة أهلها. زارت معه جميع الأرجاء وتأقلمت على حياة الغجر الرحالة التي يعيشها جويدو. كانت هي المرأة الوحيدة بين مجموعة الفنيين، لكنها اعتادت أن تفعل ما يقومون به. من كان يمكنه أن يتصور هذا لصاحبة هذا الوجه الملائكي.. كانت غالبًا ما تمارس الجنس مع جويدو داخل كابينة قيادة الشاحنة.

وفي الساعات المتأخرة من الليل، وبينما يتناول الآخرون طعام العشاء أو حين يتبادلون الآراء عن العرض الفني، أو يستلقون على البساط العشبي المترامي الأطراف، وإن كان من الصعب التعرف عليه من تحت المخلفات الورقية والأكواب البلاستيكية والزجاجات الفارغة التي لا تزال منتشرة في كل أرجاء المكان وصفائح المشروبات التي تتناثر فيما أشبه بالتلال الصغيرة حول صناديق القمامة الممتلئة عن آخرها.. كان جيرتي وجويدو قد اخترعا لغة سرية من النظرات. وكانا ينتظران تلك اللحظات الحميمية وهم يتأرجحان على أعمدة الإنارة أو بينما يجهزان أجهزة المؤثرات الخاصة؛ فكانا يسدلان الستائر ويمارسان الحب بطريقة شهوانية، كاثنين من الحيوانات التي تتعارف من خلال شم رائحة الجسد، غير مبالين برائحة جسديهما النفاذة، بل وعلى العكس أصبحت هذه الروائح النفاذة تشعل رغبتهما أكثر. أما هي فكانت تتحول بالكامل في تلك اللحظة، فيتبدل وجهها الملائكي وثنيات جسدها الرقيق، وإذ بها تتحول لما هو أشبه بخادم ذي وجه قاسٍ به مس شيطاني تشع رغباته الجنسية من كل مسامه.

أما في النهار وعندما يكون الوقت يسمح ببعض الحرية، فكانت جيّرتي تزور كنائس المدينة أو المدن المجاورة. لم تكن متدينة، لكنها كانت مبهورة بالنوافذ الملونة بالزجاج المعشق الذي تزدان به الكنائس، بل وإنها بدأت منذ فترة في عمل الحفر الملون على الزجاج وألواح البلاستيك الشفاف. كانت ترسم السيدة العذراء أو السيد المسيح في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت ترسم أجسادًا عارية، مستوحاة بعضها من أعمال كبار الفنانين التاريخيين. وكانت مأخوذة بالأعمال الفنية لميكسارو الذي أبهر العالم كله بالزجاج الملون اللامع الذي يماثل بريق قصر جريشام والذي أصبح فيما بعد فندق الفورسيزونز.

إلا أن هذا الحب الكبير الذي جمع بين جيرتي وجويدو انتهى بطريقة مأساوية في إحدى الليالي الصّيفية. فمع مرور الوقت تبدل حال جويدو من محب وعطوف إلى غيور وكريه؛ حتى وصل به الحال إلى مضايقتها إن رآها تتبادل أطراف الحديث مع أحد زملاء العمل. وبدأ يعاملها على أنها ملكه. وأخذ يشرع لها القوانين حتى فيما يخصّ ملابسها؛ فلم يعُد يناسبه أن ترتدي الشورت القصير جدًا المتآكل الأطراف أو أن ترتدي القمصان من دون حمالة الصدر؛ لأنه سمع ذات ليلة أحد العمال يقول إنها مثيرة حتى للموتى. كما أشار العاملون مرات كثيرة بين النظرات والابتسامات وأنصاف الجمل إلى الاهتزازات الغريبة التي تهتزها الشاحنة حين يختليان في داخلها، بينما الآخرون يبقون خارجًا يتحرقون وهم ينتظرون أن يأمرهم رئيسهم في العمل بالذهاب

لتناول العشاء. ولم يكن يمنعهم من اغتصاب تلك الأجنبية التي تتباهى بإظهار مفاتنها أمامهم، سوى خوفهم من رئيسهم. كان أصغر أعضاء المجموعة هو لويجينو، كان أصغر منها هى أيضًا، وقد عرض عليها في إحدى المرات أن يهربا معًا، وحين سألته جيرتي إلى أين سيأخذها وهى تدّعي الجدية، جاوبها: «أمريكا».

وفي إحدى الليالي وجدت جيرتي نفسها جالسة بجوار أحد المغنين المشهورين، الذي كانت تمتلك أسطواناته كافة؛ لأنه كان ذائع الصيت حتى في المجر. كان هو من طالبها بالجلوس بجواره بعد أن حدجها بنظراته، كانت تلك هى اللحظة التي عرفت فيها أنها نالت كفايتها من جويدو، وبخاصة أنها كانت معجبة جدًا بهذا المغني. كان المعروف عن المغني أنه متعدد العلاقات، يبدل النساء واحدة تلى الأخرى ويتعمد ذلك بعد كل عرض. وحسبما يقول، كانت تلك هي طريقته في الاسترخاء، بل واعتاد أن يحمل له عاملو الإضاءة والأمن ضحية جديدة كل يوم. فبينما هو على المسرح كان يغازل إحداهما بنظراته؛ ثم يرسل لها بعد العرض أحد رجاله ليدعوها لمنزله المتنقل ليهديها توقيعه ويتفقا على اللقاء. وفي ذات مرة كاد يفقد حياته على يد صديق لفتاة قاصر أقنعته بأنها راشدة وذهبت بصحبته إلى منزله المتنقل، وهناك لحق بهما الشاب الذي فضحه وأوشك أن يقتله لولا تدخل حرسه الشخصي.

وفي تلك الليلة، في أثناء جلوسهم بالمطعم لم يبد جويدو أي اهتمام بجيرتي التي ظلت تتحدث مع المغني المشهور. ربما كان

سيضحي بها له، وبدا على الفنان الاهتمام بكل ما كانت تتفوه به وتحكيه عن قصة الحب الكبير في حياتها وعن الفن والموسيقى. وأمضيا تلك الليلة معًا ومارسا الجنس. وعلى الرغم من أنها لم تشعر بشيء، فإنها تمكنت من تمثيل الدور بامتياز، وادعت النشوة إلى حد الجنون، فقال لها إنه يسعده أن يلقاها مجدداً، وكان ذلك غير صحيح، فقد كانت جيرتي تعلم أنه يقول الشيء نفسه لكل الفتيات بعد دخولهن فراشه. وفي اليوم التالي؛ غادرت جيرتي فجأة إلى بودابست وهي لا تريد أن تعرف شيئا عن جويدو؛ أما هو فقد حاول العثور عليها لفترة ثم نسي أمرها.

والآن يبدو أن قصة جويدو قد مر عليها زمن طويل، وانكبت جيرتي على الدراسة بكل ما أوتيت من ولع، فتخرجت بتفوق، بل وفتحت ورشة أشغال صغيرة خارج المدينة لفن الرسم على الزجاج. وعند لقائها إدواردو كان ذلك بعد رحلة طويلة بين مختلف المدن الإيطالية والأوروبية. وقبل أن تصل إلى فلورنسا، كانت قد مرت بفيينا، وبعد فلورنسا كانت تنتظرها روما، وبعدها باريس ودوبلين وإدينبرج وستوكهولم وجوتنبرج، فهي كانت على أثر جدها إمري. وقد جمعت مجموعة زاخرة من البطاقات البريدية التي تصور الإلهة «أوروبا»، كان البعض يرسلها لها والبعض الآخر يرسل لها الكتالوجات والكتيبات التي تدور حول الإلهة «أوروبا». وفي ذات مرة حكت لإدواردو أن جدها عمل لفترة في أحد برامج شبكة «الراي» الصادرة باللغة المجرية، وأنه سوف يسعدها أن

تبحث في الأرشيف عن بعض البرامج التي كان يعمل بها جدها. ووعدها إدواردو بمساعدتها واستضافتها إن أرادت. وعندما أبلغ الجد إمري زوجته في إحدى رسائله الطويلة أنه كان يعيش مع امرأة أخرى وهى ممثلة مسرح أيرلندية، لم يعلم أحد إذا كان قد أقدم على ذلك بدافع عشقه للممثلة، أم لأنه كان يأمل فى أن يتوقف البوليس السري عن متابعتها.

الفصل التاسع

ما من شيء يمكن عمله، وقد كان ما كان ولن يتغير شيء.. ليس هناك داعٍ إلى الإصرار.. تلك اللحظات من حياتنا التي لا يمكن نسيانها، تزج بنفسها في أذهاننا كمسامير من حديد في خشب التنوب الطيع. ولا فائدة من محاولة إخراجها.. فالمسمار ثابت في مكانه، بإصرار لا يلين، وما من سبيل لأن يهجرك.

هكذا كان إدواردو يفكر في ذات صباح، وهو يرتشف بماصة ملونة كأس من الكينوتو البارد، محدثا جلبة دون أن يشعر بها. كان يجلس في أحد المقاهي القابعة في زاوية من ميدان فوروسماتري في وسط مدينة بودابست. كان السائحون الذين يمرون به في مجموعات أو فرادى، مرتدين ملابس خفيفة، بفعل الحرارة المتقدة في منتصف شهر يونيو.

على مدار الليل كله، لم يفعل إدواردو شيئًا سوى الحلم بالسلالم المتحركة في محطة المترو الخاوية، وهو واقف عند قمتها ولم يقرر النزول بعد؛ ثم ها هى تظهر أمامه كما لو كانت قد أتت من العالم السفلي،

مبتسمة بدلال وغنج، ويرفرف شعرها وتنورتها، كما في المشهد الخالد لمارلين مونرو التي ربما كانت تصرخ في الأسفل، لكن ليس في الإمكان فهم ما تقول، مع حركة العجلات والجلجلة المكتومة التي لا تنقطع، والتي لا يمكن تحملها. بدت جلبة متعمدة، ثم توقف كل شيء فجأة. فبدأ إدواردو حينها بنزول مئات الدرجات التي كانت تفصله عنها، لكن كما لو كانت بكرات السلالم تدور في الفراغ. كان يجد نفسه دائمًا عند النقطة ذاتها.. وها هي تمد له يدها في صمت، كما يفعل المرء لتشجيع طفل من مسافة لا يمكنه تجاوزها.

وفي لحظة ما انعكس المشهد، فكان هو في هذه المرة أسفل السلالم المتحركة وهي قابعة عند قمتها تنتظر متململة. وعلى الرغم من رغبة إدواردو العارمة في الصعود، فإنه لم يكن قادرًا على صعود تلك السلالم اللعينة. كانت هناك قوة مجهولة تمنعه من الصعود، قوة لا مفر منها.. هذا الحلم الذي ظل يراوده لأيام كثيرة، كانت له خاتمة غامضة ومأساوية، حين كان يظهر صوت الصرير المعدني لعجلات قطار وهو يتوقف، أما هو فلم يعد يراها أعلى السلم المتحرك، بل ظهر رجلان نحيلان حليقا الرأس يغطي أذرعتهما الوشم، يبدو من الصلبان المعقوفة، وأقراط غريبة تتدلى من أنفيهما وآذانهما، فيحملانه ويضعانه على القطار، في إحدى العربات التي بدت مجهزة للتعذيب. ويبدأ القطار في التحرك ببطء حتى يختفي في أحشاء الأرض ليعاود الظهور في قلب الريف، وهو يجري بين أسوار كبيرة من الأسلاك الشائكة، ومضاء

بنظام من العواكس القوية المثبتة فوق أعمدة معدنية مرتفعة مثل تلك التي تستعمل لإضاءة ملاعب الكرة.

وحين توقف القطار الذي على ما يبدو كان الراكب الوحيد به هو إدواردو؛ وقد أجبر على النزول ثم اقتادوه أمام معسكر كبير. وبعد برهة، ظهر أمام العتبة جنرال روسي قوي البنيان، محمر البشرة، وتعرف إدواردو على وجهه فور أن شاهده، لأنه كان هو نفس الشخص الذي شاهد صورته في لوحة كبيرة معلقة وسط إحدى عشرة لوحة أخرى في الأركان الجانبية للبهو الرئيسي في المعهد الثقافي الإيطالي والتي كانت في السابق قاعة البرلمان المجري.. بل كانت تلك الصورة مصدر الإلهام لإدواردو في كتابة أول مقالاته عن «٥٦»، لأن هذا الرجل البدين ذا اللحية الحمراء وقد بدا الازدراء على وجهه، ويده المتكئة على غمد سلاحه، مهددا بسحبه وإطلاق النار على الشخص الذي كان يقوم بتصويره، كانت بالنسبة إلى إدواردو تجسيداً مثاليًا لغطرسة السلطة. وعند رؤية ذلك الرجل في المنام، استيقظ إدواردو فجأة من نومه، وجلس فوق سريره غارقًا في عرقه.

هذا الحلم الذي كان يتكرر أكثر من مرة بنهايات مختلفة، كان إدواردو يعتقد أنه يغذيه بتصرفاته. فمنذ عدة أيام لا يدرى لماذا عندما يستقل المترو كان يخطر إليه أن ينزل ليس عبر السلالم المتحركة المزدحمة، ولكن عن طريق السلالم الرئيسية المعطلة في أغلب الأحوال والتى تعمل فقط بعض ساعات الذروة في اليوم.. وكان يتردد في كل

مرة، فلو فعل لنظر إليه الجميع الصاعدون والنازلون في كلتا الناحيتين، ولاتهمه الجميع بأنه أبله مصاب بهوس الاستعراض، وكل هذه العيون تحملق فيه بلا مبالاة أو بعطف؛ ولكنه لم يكن قط ليتخلى عن خطته التي أصبحت بمثابة التحدي لنفسه. ربما يستطيع تحقيق الهدف في الصباح الباكر مثلا يوم الأحد، حيث يخلو المترو من الأشخاص. ربما ارتدى السترة الرياضية والحذاء الرياضي ونزل السلم، وبذلك أمكنه عد الدرجات في أثناء النزول؛ دون أن ينظر إلى أسفل كي لا يصاب بالدوار الذي أصبح يصيبه كل حين بعد شفائه من المرض الذي ألمّ به، وبدأ يشعر بعده بالدوار وأعراض أخرى جديدة. وبعد النزول كان يمكنه استقلال القطار الذي يستقله كل يوم للذهاب إلى «مقهى نيويورك»، إلا أنه بدلاً من النزول بعد ثلاث محطات، كان يمكنه مواصلة الرحلة إلى أول الخط. ولعله كان يستطيع أن يستقل القطار في الاتّجاه العكسي ويعود أدراجه ويبدأ في عد درجات السلم، وفي هذه المرة كان يستطيع العد ناظراً إلى الأمام وليس إلى الخلف دون خوف من أن يصيبه الدوار.

كان عد درجات السلم عادة قديمة لإدواردو، ترجع إلى فترة طفولته عندما كان يرغم والديه، خاصة والده، على اللحاق به عند صعود سلالم القصور القديمة في روما أو في أثناء الإجازات عند زيارة الأماكن الأثرية، وكان يسجل بدقة في دفتره المكان وعدد درجات السلم. فلو كان قدر له المشاركة في مسابقة حول الأماكن الأثرية، لاستطاع الفوز بسهولة. وما زال يتذكر عدد درجات سلم كاتدرائية ميلانو (٢٠١ درجة)

وسان فيتو في براغ (٢٩٤ درجة)، وبرج بيزا (٢٩٤ درجة)، أما برج إيفيل فيبلغ (١٩٩٥ درجة). ولم يصعد درجات برج إيفيل مع الأب، وإنما مع زميل تسابق معه. وقد وصل إلى القمة خائر القوى، إلا أنه فاز بالرهان.

والآن، عادت إليه تلك العادة الغريبة بعد أن نسيها تمامًا، وتحولت إلى هوس يسيطر عليه. وكان هناك ما يبررها فانتقل من عد درجات السلم إلى عد الخطوات. وقد قرأ بالفعل في إحدى المجلات أنه للحفاظ على الصحة ليس من الضروري التردد على صالات الألعاب الرياضية والقيام بمجهود خارق، بينما ينظر إليك شاب مفتول العضلات شاءت الظروف أن يقف بجانبك، بينما تبلل قطرات العرق وجهك المحتقن وأنت تحاول السير على سجادة السرعة التي تفوق سرعتها بالتأكيد قدراتك، فينظر إليك بشفقة واستعلاء وهو المفتول العضلات بحزام الملاكمين حول وسطه ويتباهى بحمل أثقال دون مبرر.. على العكس من ذلك كله يكفي التمشية بخطوات ثابتة سريعة لمدة ساعة يوميًا من الأفضل في إحدى الحدائق؛ ما يتيح لك استنشاق الهواء النقي، وإذا تعذر وجود الحديقة قد يكون من الكافي التمشية في المدينة.

وكان الطبيب الإخصائي ينصح بالأخذ في الاعتبار ليس فقط الوقت، وإنما أيضًا عد الخطوات، لأن سرعة المشي تختلف من شخص لآخر، ثم إنه في أثناء السير قد يتوقف المرء أمام إحدى الفاترينات لرؤية البضائع الجديدة وربما جذبته فيدخل المحل؛ أو يظهر له فجأة شخص

لم يقابله منذ سنوات، وقد يحدث هذا أيضًا في البلد الأجنبي الذي ذهبت إليه كي لا تقابل ذلك النوع من الأشخاص؛ لذا يكفي عد الخطوات في التدريبات الأولى خمسة آلاف خطوة. بدا عدد الخطوات ضخمًا جدًا بالنسبة إلى إدواردو.

وإدواردو الذي أصيب بالهلع على صحته بعد تجربة المرض، قرر اتباع تعليمات الطبيب بحذافيرها؛ وبدأ كل يوم في التمشية وعد الخطوات الخمس آلاف التي تفصل بينه وبين استعادة صحة جسده الذي أصبح أكثر إجهادًا في الفترة الأخيرة.

وقد وجد إدواردو صعوبة كبيرة في بادئ الأمر، وكان قد عد الأصوات من واحد إلى خمسة آلاف بصعوبة كبيرة، ليس فقط لأنه وصل إلى منتصف الرقم خائر القوى وإنما أيضا لأنه كان يعدها بصوت مرتفع؛ بما جعل المارين يلتفتون إليه وينظرون إليه بوصفه رجلاً فقد عقله يهذي بالأرقام في الطريق.

وما زاد الأمر تعقيدًا، شعوره بجفاف الحلق، وقد ساعد فى ذلك أيضًا أنه قد بدأ في الأيام السابقة في تعلم اللغة الألمانية؛ وكان يتعمد عد الخطوات بالألمانية ليتدرب عليها، فقد كان إدواردو شديد الولع باللغات، فكان كل فترة يبدأ في دراسة لغة بعينها ويبذل مجهودًا ضخمًا في تعلمها، وبعد أسابيع قليلة، وبعد دراسة مفرداتها الأولية، يهجرها إلى لغة أخرى. وقد فعل الشيء نفسه مع اللغة المجرية على الرغم من تعوده عليها في طفولته. واللغة المجرية تعتبر واحدة من أصعب اللغات

على الإطلاق كما وصفها أحد الكُتَّاب البرازيليين بأنها لغة لا يتقنها إلا الشيطان. وقد كتب إدواردو ذات مرة مقالاً عن صعوبة اللغة المجرية.

وقد قرر إدواردو أن يأخذ معه زجاجة مياه في أثناء التمشية، فقد نصحه الطبيب بأن يشرب على الأقل لترين من المياه يومياً، وبهذا جمع بين المفيد والممتع. فكر إدواردو فى أن لترين من المياه يومياً كمية مبالغ فيها، ثم إن حمل زجاجة المياه في يده في أثناء التمشية قد يعوق حركته، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يعلق برقبته زجاجة المياه، كما يفعل بعض العمال الذين يقومون بترميم البناية أمام بيته، حيث يعلقون زجاجات المياه برقباتهم وبعد الشرب يمسحون أفواههم بطرف أكمام قمصانهم المربع المغبرة.

لا، أفضل من ذلك كله حلوى الكراميل بنكهة النعناع التي تجري الريق وتنعش الفم، إلا أنه تذكر أنه عند تناول حبات الحلوى تلك يشعر دائماً بالرغبة في العطس.

فكر فى أنه يمكنه التوقف كل حين في أحد المقاهي، وهناك يمكنه طلب كوب من المياه، ويواصل طريقه، إلا أن ذلك قد يشتت ذهنه وينسيه الأرقام التي قام بعدِّها.. وقد جرب ذلك في بادئ الأمر، إلا أن المقاهي بالمجر ليست كالمقاهي في إيطاليا. في إيطاليا يتناول الناس المشروبات وهم واقفون وينصرفون فوراً، أما في المجر فهم يفضلون الجلوس على المناضد وتناول مشروباتهم بتأنٍ شديد. وقد أدرك فوراً أنه من الخطأ تغيير إيقاع الخطوات، ثم إن المياه في المقاهي لم تكن تقدم قط في درجة الحرارة المناسبة، فكانت إمَّا شديدة البرودة وإمَّا ساخنة.

كان إدواردو يقدح زناد فكره بحثًا عن طريقة تمكنه من حل مشكلة العد دون أن يجهد نفسه ويتوه بين الأرقام. فكر في العداد الذي كان يستخدم في المدارس الابتدائية ذي الكرات الملونة، أو كرات البلي الملونة التي كانت تستخدم للعب في الحلقات المرسومة فوق الرمال، إلا أنه تذكر أنه لم يكن يلعب بها قط، ففي كل مرة كان يحملها في جيب البنطال القصير، كان يخرم جيوبه ويتسبب في تقريع من والدته.

فكر أيضًا في سبحة جدته كارولتا التي كانت تستخدمها في الصلاة مُجرِية حباتها بين أصابعها.. ربما أمكنه أن يفعل ذلك.. بدت له الفكرة غريبة ولكن أفضل من حلول أخرى.

كيف يمكنه اقتناء سبحة؟ لقد مضى وقت طويل منذ أن شاهد عجائز يحملون السبحة.

وقد تذكر عندما ذهب في طفولته مع جدته إلى جنازة في أربينو، كانت حجرة مظلمة باردة، وقد اجتمعت النساء متشحات بالسواد يبكين ويصلين أمام جسد الميت المسجى فوق سريره وقد وضع بين ذراعيه صليبًا، بينما الشمعدانات الحديدية كانت تحمل شمعتين تطلقان ضوءًا باهتًا عند قدم السرير.

كانت الغرفة تضم النساء فقط وبعض الأطفال الذين أصابهم الضجر، أما الرجال فكانوا بالخارج يثرثرون ويدخنون.

الفصل العاشر

تذكر إدواردو أنه شاهد ذات مرة في أحد الطرق الجانبية من الشارع الرئيسي، عارضة زجاجية تحوي صوراً وكتبًا دينية وتماثيل صغيرة.. يمكنه أن يسأل هناك فبالتأكيد يبيعون أيضًا السبح.

وبعد اقتناء السبح، كيف يستخدمها؟ وكم حبة تحتوي عليها السبحة في الغالب، وهل تسمى حبات؟ وإن احتوت السبحة الواحدة على خمسين حبة مثلاً، ففي هذه الحالة يتعين أن يحرك حبة كل مئة خطوة، أم عشرًا كل ألف خطوة كي يصل إلى عدد خمسة آلاف.. ثم هل استخدام السبحة لهدف دنيوي مادي وليس روحانيًا يعد انتهاكًا للمقدسات؟

ثم إن أحدًا لن يتوقف لرؤيته والسبحة في يده، سيظنونه قسًا يرتدي ثيابًا عادية يمشي بخطوات سريعة لمقابلة من يحتاجه من النفوس الخاطئة.. وماذا عن نظراته المختلسة، أحيانا شاردة، وأخرى فاترة، وفي أحايين أخرى فاضحة عن قصد إلى الجميلات في الطريق اللاتي يتعمدن إظهار مفاتنهن بكل الطرق.. ثم ماذا عن التفاته الدائم

للنظر إلى الجزء الذى يعجبه أكثر في جسد المرأة، وإن كان هذا من الأمور التى دائما ما أصابته بالحيرة؟ بالتأكيد فإن خياله لم يكن ليفتر عند رؤية ساقين ملفوفتين، أو ردفين متأرجحين.. ثم ماذا عن نهدين صلبين مستديرين؟ أو عينان تشع منهما نظرات غنج مشتعلة؟ أو فم حسي بشفتين متمردتين؟ ثم التعثر المستمر في المشي والاعتذار لمن يصطدم به في الطريق؟ ثم ماذا سيظن الناس به؟ القسيس الذى يمتع عينيه بمفاتن النساء؟

فكر فى أنه يمكنه التغلب على ذلك بسهولة إذا اختار شوارع غير مزدحمة واختار السير في أوقات في غير ساعات الذروة. ثم فكر فى أن رجال الدين في نهاية الأمر ليسوا ملائكة، فهناك منهم من يرتكب الخطايا، كما يظهر في الجرائد كل حين، وهو نفسه كتب مقالاً ذات يوم عن ذلك. بالتأكيد هناك الملتزمون، بل والأغلبية، ولكن هناك استثناء ينبغي أخذه في الاعتبار. تذكر إدواردو تقديمه لحلقة إذاعية عن القساوسة الذين خلعوا رداءهم وغيروا وجهتهم. وقد واتته الفكرة بالصدفة، ذات يوم كان مع زوجته بإحدى القرى السياحية الريفية، وشاهد بالقرب من منضدتهما رجلاً لطيفًا ذا شارب مربع كما لو كان رسمًا بالكمبيوتر، ودخل المكان فتاتان ترتديان ملابس مكشوفة، فحدقهما بنظرة غريبة، تختلف عن نظرة الرجل العادية إلى المرأة، على الأقل بدا له ذلك، ربما نظرة من الصعب وصفها.

وما لبث الرجل أن عرف إدواردو، تحدث معه عن موطنه وأين يعيش وعمله.. أخبره بأنه مدرس موسيقى بالمعاش؛ ثم شيئًا فشيئًا، استغرقا في الثرثرة التي صحبها نبيذ أحمر قوي ينتجه صاحب المكان، قوي البنيان.

وقد حكى له الرجل عن حياته بوصفه قسًا خلع عباءته ليتزوج بالفتاة التي أحبها. كانت قصة حب قوية واجهت صعوبات كثيرة، وتحديات مستحيلة وانتهى بهما الأمر إلى الانتقال من البلدة كي يستطيعا الزواج، وهكذا تزوج من حبيبته ميرلا وأنجبا أولادًا كبروا ويعيشون في سلام. استمر الرجل في الحكي وقص عليه أشياء تتعلق بحياته ربما لم يكن ليفصح عنها في الظروف العادية، ولكن يبدو أن تأثير الخمر كان قويًا؛ أو ربما فكر في أن إدواردو قد ينشر ما يحكيه في مقال أو يقدمه في حلقة إذاعية.

حكى له أيضًا كيف أصبح قسيسًا، فقد كان ينتمي إلى عائلة فقيرة، وكان الانضمام إلى الدير بمثابة الملاذ الوحيد لمن في مثل ظروفه، وبذلك انضم إلى دير المدينة القريبة والتحق بالدراسة. لم يكن الأمر سهلاً لأن أباه كان يعرف بأنه شيوعي، إلا أنه عاد إلى الكنيسة أو على الأقل تظاهر بذلك ليتمكن ابنه من الالتحاق بالدير.

وفي الأيام الأولى من الدير كان لا يزال يحلم بجينتا- جارتهم التي كانت تكبره في العمر والتي علمته فنون الحب - إلا أن صرامة التعليم الديني والتزام الزملاء بث في نفسه المشاعر الدينية والالتزام.

وكان عندما تعرف على ميرلا، لا يزال شابًا صغيرًا، يقدم خدمات لبعض أهالى الإبراشية فى بيوتهم. من بين هؤلاء سيدة عجوز مريضة، يمنعها المرض من الذهاب إلى القداس، فكان يذهب مرة كل أسبوع ليسمع اعترافاتها ويعطيها المناولة، وكانت تساعد العجوز حفيدتها ميرلا الطالبة بكلية الآداب، لذا كانت تستقبله فى البيت.

وذات يوم طلبت منه أن يسمع اعترافاتها .. جلسا وجها لوجه حول منضدة بالمطبخ مغطاة بمفرش من البلاستيك المنقوش بالزهور. كان اعتراف الفتاة طويلا فقد كشفت له كل أسرارها، كما لو كانت تريد التخلص للأبد من عبء يجثم فوق صدرها، دون لحظة تردد. أخبرته بأنها فى سن السادسة عشرة، أحبت بجنون رجلاً متزوجًا واستمر ذلك الحب لسنين عديدة . كان ذلك الرجل أخًا غير شقيق لوالدها، وكان يعيش فى بلدة أخرى. فوجدت فيه عوضا عن الأب الذى هرب مع امرأة أخرى تاركا عائلته للشقاء.

وقد أظهر العم تانينو الطيبة والحنان تجاه الأم والابناء. كان يزورهم دائمًا حاملاً معه الكثير من الهدايا. كان يظل معهم إلى ساعة متأخرة وأحيانا كان يقضى الليل ببيتهم.

وفى ليلة عيد ميلادها السادس عشر بعد أن احتفل معهم وشربوا نخبها عدة مرات.. بدل من أن يدخل غرفة أمها لينام بها، دلف إلى حجرتها وطلب منها أن تجرب هديته لها التى ابتاعها سرا. كانت الهدية حمالة صدر من الدانتيل ولم تكن مفاجأة بالنسبة لها، فقد طلبت منه تلك

الهدية، فصديقتها في المدرسة كانت ترتدي ملابس داخلية على آخر صيحات الموضة بل وكانت تمارس الحب كل يوم مع شاب يكبرها في العمر بكثير.

لم تعد مشية ميرلا وتأرجح ردفيها تنم عن مجرد طفلة بريئة تقلد في مشيتها واهتزار جسدها الفتيات الكبار؛ وإنما أصبحت فتاة جريئة تتعمد إشعال الرغبة في عيون الرجال الذين تتأجج صدورهم بالشهوة عند رؤية مفاتنها. وقد طبع في ذاكرتها مشهد يصعب محوه عندما شاهدت العم تانينو مع والدتها؛ وقد تحول ذلك الرجل الطيب الملتزم اللطيف إلى حيوان جامح يهتز السرير تحت جسده النهم للجنس؛ ويتلفظ بعبارات يتضرج أمامها وجه أرباب السوابق خجلا .

الفصل الحادي عشر

وأخيراً قرر إدواردو.. دخل ذلك المحل الصغير الذي كان قد لمحه على ناصية «كوروت» لشراء مسبحته التدريبية المبتغاة. في المحل كانت هناك امرأة مسنة رقيقة الحاشية، وإن كانت هذلية الملامح بظهرها المقوس قليلا، والشعر الواضح فوق الوجه ونظرة متجهمة جداً، حتى إنك للوهلة الأولى، لا تستطيع أن تميز جيداً إن كانت امرأة أو رجلاً. وضعت على الطاولة عدة علب تحتوي على سبحات مختلفة الألوان؛ ثم سألت إدواردو، بلهجة تقارب لهجة المحققين، إن كان رجل دين أو مدنيًا. وأوضحت له أن ذلك اللون منتشر جداً ربما لأنه ينتج من تأثير المخدرات الكيوانية تقريبًا. لم تكن تعرف كيف تعلل له ذلك، ولكنها اكتفت بأنها كانت كذلك. كان إدواردو قد اختار اختياراً جيداً. ربما كان أحد أفراد جماعة الفوكولاريني، جاء إلى بودابست للاجتماع العالمي الذي سوف يعقد في استاد بالقرب من المحطة المركزية. أكد إدواردو – كذبًا– أنه كان من الفوكولارين.

وعلى الفور كانت المرأة قد أجزلت الثناء على الفوكولارين، موضحة أن مؤسسة الحركة كانت امرأة من المجر، وقالت إنها يمكنها

أن تعطي له خصمًا على هذا الصنف.. في تلك اللحظة تحديدًا دخلت فتاة، ربما كانت راهبة.. لم يكن إدواردو يفهم في ذلك كثيراً، ولكن بدا له أنها راهبة كرملية، من اللاتي يرتدين فساتين رمادية اللون. كانت قد جاءت إلى هنا متلمسة كتاب الصلوات لكنيسة الرهبان الفرنشيسكان التي كانت، ومعها زميلاتها الراهبات، يتعهدنها بالرعاية. وكانت حقًا راهبة جميلة، لطيفة الطبع، بسيطة للغاية. كانت لها عينان صغيرتان نابضتان بالحياة كأنها هرة صغيرة تموء، وكانت تتحرك بسرعة ورشاقة. حاول إدواردو على الفور أن يحادثها. سألها بقليل من الجرأة: ما الذي عساه أن يدفع فتاة في غاية الجمال مثلها لأن تصبح راهبة. لاحظت أن إدواردو كان يراقبها، متظاهراً بأنه متردد حول اختيار السبحة.. ورأت أن وجه إدواردو لا يشي بأنه رجل دين، فلماذا إذن كان يشتري سبحة؟ لأمه، أم لجدته؟

ببعض الحرج، أوضح لها إدواردو السبب الغريب وراء شراء السبحة. المرأة المسنة وراء الطاولة كانت في هذه الأثناء قد بدأت في إظهار علامات نفاد الصبر، ولكنها لم تأبه بها على الإطلاق. انفجرت في ضحكة عالية الصوت كشفت عن أسنان بيضاء ناصعة كالأسنان التي تظهر في الإعلانات، وأوضحت له أنه كان يكفيه الذهاب إلى أي متجر للألعاب الرياضية، حيث إنه يمكن أن يشتري آلة إلكترونية صغيرة، كانت مطروحة في الأسواق منذ بضعة شهور، وكانت تسمى «عداد الخطوات»، وأن صديقها اشترى مؤخراً واحدة منها لأنه كان يذهب كل

٥

يوم أحد كي يجري في جزيرة مارجريتا؛ ثم قالت إنها كانت راهبة، نعم، ولكنها راهبة علمانية، من تلك اللاتي يمكنهن إعطاء المناولة، ولكن يمكنها أن تتزوج أيضًا.. كذلك كان خطيبها من مرتادي الأماكن الدينية. كانت تعزف على البيانو، وقد أنشأت مجموعة موسيقية صغيرة مع غيرها من شباب الكنيسة.

خطيبها أيضًا كان يعزف على الأرغن، وكل عام كان ينظم ما يشبه المهرجان الذي يدعو إليه عازفو الأرغن من المجر ومن الخارج. والكنيسة التي كان يعزف فيها، والتي كانت فيها واحدة من أفضل آلات الأرغن في البلد كله، كانت الكنيسة الكاثوليكية الوحيدة التي بنيت بإذن من السلطات، في أثناء النظام الشيوعي. وقالت له إن عليه أن يذهب ذات مرة للاستماع إلى حفله موسيقيه من حفلاتهم، وإنه سوف يستمتع بها بكل تأكيد. كانوا أيضًا يعزفون موسيقى الجاز، وكان الجمهور الغفير دائمًا، في معظمه من الشباب. وكان الشباب - في رأيها- يعيدون اكتشاف بعض القيم.. كانوا يغنون جميعًا معًا، ثم أخرجت بطاقة تعريف مطبوعة يدويًا على الكمبيوتر وأعطته إياها.

والرهبنة الحالية- كما علم إدواردو لاحقًا- كانت تغيرت جزئيًا بتأثير أفضل صديقاتها، التي ترهبنت مؤخرًا؛ كانت قد غيرت عملها قبل وقت قصير، من قبل كانت تعمل بالترميم والحفاظ على الآثار المعمارية، وقد أمضت بعض السنوات تسافر عبر أرجاء المجر لتفقد المعالم الأثرية، والمباني التاريخية، والكنائس، واهتمت بشكل خاص بالقلعات؛ فقد كانت

القلاع، بعد اكتمال ترميمها، تدار بواسطة شركات تنظيم الحفلات الموسيقية وغيرها من البرامج الثقافية.. وهى الآن تعمل في مركز توثيق الثورة وتختص بفهرسة الوثائق والمواد الفوتوغرافية. اعترف لها إدواردو بأنه هو أيضًا كان مهتمًا بالثورة وكان يحضر لبعض التقارير الصحفية لمجلة أسبوعية إيطالية وجمع مواد لكتاب كان إدواردو ينوي كتابته. وأسر إليها أنه يود مقابلتها مرة أخرى، أو ربما الذهاب فورا لتناول مشروب معًا في «المقهى سنترال»، الذي كان على بعد خطوتين من المكان. ولو أرادت لالتقاها في «مقهى نيويورك» الذي اعتاد ارتياده. وقالت إنها بلا شك تفضل «نيويورك»، على الرغم من أنه الآن، وبعد ترميمه، أصبح مكانًا يثير الرهبة قليلاً، ولكنها أضافت إنها لن تستطيع في ذلك اليوم لأن لديها موعداً ويجب أن تسافر إلى «بكس» عند الظهيرة، وأنه لو هاتفها فسوف يتفقان على اللقاء في اليوم التالي أو في أي يوم آخر.

التقيا بعد ظهر اليوم التالي في «مقهى نيويورك».. كانت من النوع المتهور، فقد مرت بكثير من التجارب العاطفية، لكنها في كل مرة كانت تدرك أنه لم يكن يبقى بداخلها إلا فراغ يدفع إلى مزيد من اليأس. كانت دائمًا ما ينقصها شيء ما. بعد التحول المفاجئ لمارتا، أفضل صديقاتها، دخلت هى أيضًا في أزمة.. والآن عثرت على هذا الشيء أخيراً. ذات مساء جاءها ما يشبه الإلهام، بينما كانت ترقص في أحد الأماكن الشبابية الحديثة، كان فوق مركب عائم رأسٍ بمحاذاة النهر.

كانت ضجة الموسيقى والدخان لا يطاقان؛ ما دفعاهما إلى الخروج من المكان إلى مقدمة المركب. ومن هناك كان من الممكن الاستمتاع بمنظر ضفة النهر المضاءة، وبدا جسر السلاسل مثل «تاج ذهبي» معلق فوق الماء. نظرت إلى أعلى، فبدا لها أن تمثال «سان جيراردو» يتحرك، ويجذبها بين ذراعيه. كان لها أن تظن في لحظة تالية أنها ربما كانت هلوسة ناجمة عن الكحول المختلط مع غيره، الذي اعتاد عليه الشباب على نطاق واسع، ولكنها في تلك الليلة كانت فائقة تمامًا.. فعلى غير العادة لم تشرب ولو نقطة واحدة في ذلك المساء، ولم تبتلع أي قرص من تلك الأقراص التي كانت تجعلها تحلم. منذ ذلك المساء بالتحديد، بل ومن لحظة محددة من ذلك الليل، بدأت عملية تحول كامل لتفكيرها، تغيرت معها حياتها تمامًا، ساعدت في هذا إلى حد كبير محادثات طويلة مع مارتا التي لم تكن - حتى ذلك الحين - قد فهمت سر تحولها. كانت مارتا التي فقدت جدها خلال أيام الثورة، قد تخلت عن دراستها في أكاديمية السينما وعملت في هيئة الإشراف العمراني بعد أن أدت بعض الأعمال المؤقتة. إن عالم السينما، على الرغم من أنه ساحر، كان دائمًا عالم الغدر والنفاق. كانت قد وقعت على الفور في هوى ممثل عجوز كان يعقد حلقة دراسية في الأكاديمية، وكان ممثلاً شهيرًا كانت أمها في شبابها مغرمة به أيضًا، كأي شابة في تلك السن.. لم يعد الآن يمثل. تقاعد في قلعة قديمة اشتراها في الريف المجري، ليس بعيدًا عن بودابست، حيث كان يعيش مع حيواناته، لا سيما الكلاب والخيول. كان لا يزال لديه عدد من العشيقات، حيث كان أصدقاؤه المعجبون به

يوفرونهن له. على الرغم من فارق السن الكبير بين الاثنين، فإنها أحبته، أو بمعنى أدق إنها فتنت به. كان جسدها يرتجف لمجرد الاستماع إلى صوته، المخملي الدافئ. وذات مساء، بعد المحاضرة، أخبرته إنها تحتاج إلى التحدث معه، وتريد إجراء مقابلة، لأنها كانت تعد رسالة عن الأفلام والمسرحيات التي قام ببطولتها. كان هو قد لاحظ في أثناء الدرس، من الطريقة التي كانت تنظر إليه بها، لكنه لم يعط للأمر أهمية كبيرة. مرة واحدة فقط ثبت عليها عينيه الجذابتين اللتين لا تقاومان، مثل عيني عمر الشريف.

في ذلك المساء انتظرته أمام السيارة، وقررت ألا تتركه يفلت منها. كانت الأم هي التي دفعتها بلا وعي إلى هذا. الأم، عندما كانت في مثل عمرها تقريبًا، كانت حرفيًا مجنونة جنونًا تامًا به. مارست الحب معه في المرة الأولى في غرفة خلع الملابس في نهاية عرض مسرحي؛ ثم أصبحت واحدة من عشيقاته الكثيرات، ولكن لم يكن بمقدورها الاستسلام لتقاسمه مع الأخريات، فجن جنونها وانتهى بها الأمر في مستشفى للأمراض النفسية، الابنة التي كانت تزورها يوميًا- وربما بلا وعي- كانت تريد الانتقام لها. ولكن بدلاً من الانتقام لها، انتهى بها الأمر إلى الوقوع في حب هذا الممثل المجنون. مساء ذلك اليوم نفسه كان قد حملها إلى الريف، إلى تلك القلعة الحلم. لبعض الأيام عاشت في عالم مسحور، بين الخيول والطبيعة، ثم طردت منه.. أما هو، باعتباره ممثلاً خبيرًا، وبخاصة بعد أن احتسى كمية هائلة من الويسكي، فقد راح يرتجل بعض المونولوجات من أعمال شكسبير التي لا تقاوم، والتي كان

يعتبرها أفضل أدواره التي حققت له النجاح على المسرح، والتي كانت سر شهرته، ثم بدأت ممارساته المزعجة المحاصرة من الإغواء، والتي كانت تؤدي حتماً إلى رحلة فاتنة في متاهة مسحورة لا مهرب منها. كان من المستحيل على أي امرأة أن تقاومها. عندما طردها، لم تفلح في أن تدرك الطمأنينة؛ ومن ثم كانت صديقتها هى التي أوحت إليها أن تنعزل في دير، وكان في الدير خلاصها، وكان فيه بداية لحياة حب جديدة تجاه الآخرين وتجاه الله.

أما إدواردو، فلو أراد كان يمكنه الذهاب إلى المركز مبتغيًا الحصول على صور الثورة التي كان يحتاج إليها؛ فقد كانوا يجمعون أرشيفًا للأفلام أيضًا، يضم جميع الأفلام الوثائقية وتقارير الإذاعة والتليفزيون التي تغطي الثورة؛ بل إن صحفيًا إيطاليًا، قبل ذلك ببضعة أيام كان يعد كتابًا مصوراً، يقارن فيه بين الشخصيات والأماكن في أثناء الثورة وبعدها بخمسين عاماً.

الفصل الثاني عشر

كان يتابعها بنظره من مسافة قصيرة، بينما كانت تصعد السلالم المرتفعة المبنية من الحصى الأبيض، تهز أردافها هزًا خفيفًا.. بدت كأنها غزالة.. كانت ردفيها تضغطان على حرير البنطلون الضيق قليلاً. كانت رشيقة. عندما وصلت إلى قمة الدرج، التفتت كما لو كانت قد لاحظت أن شخصًا كان يمشي وراءها ويراقبها، ووجدته وراءها بخطوتين، مشدوها.. تعرفت عليه فوراً، وكانت مفاجأة. لم تكن تستطع إلا أن تتعرف عليه. هي أيضًا كانْ قد أعجبها هذا الرجل. كانوا قد قدموها له قبل نصف الساعة في المركز. ماذا فعل؟ هل تبعها؟ أليس مجنونًا؟ قدم نفسه بوصفه صحفيًا إيطاليًا، حتى لو كانت طريقته في النظر إليها وحفاوته بها المبالغ فيها، قد أثارتا بعض الريبة عندها، وكذلك بعض الافتتان. «شكوك لا أساس لها»، هكذا فكرت على الفور.. كل الرجال الإيطاليين يفعلون الشيء نفسه.

لم تكن تستطيع أن تتصور هذا، فالحقيقة أن إدواردو كان قد أصابته هاتان العينان كأنهما برق في سماء صافية.. بدت له عندما رآها أنها إلهة هبطت من السماء.. من المؤكد أنه كان يبالغ.. وعلى أي

حال لم يكن هذا ليبرر سلوكه على الإطلاق.. هل أصبح مهووسًا حقًا؟ في مثل عمره؟ ألا يكفيه ما به من العيوب؟ الآن يطارد الفتيات في الشوارع أيضًا؟ الغباء والشيخوخة أمران متلازمان، كان يود لو اعترف لها، لتقليل أثر الصدمة، ولكنه كان مفتونًا افتتانًا حقيقيًا بتلك النظرة التي تبدو غامضة والوجه الذي يبدو حاد الملامح، مكتمل الخطوط، عذبًا جميلاً وحزينًا في الوقت نفسه. كان يريد أن يقول لها ذلك على الفور، وأن يعانقها ويضمها إليها ويقبلها.. أراد لو مارس معها الحب، هناك، مستندين على جدار، بلا تردد.

كانت لحظة خاصة، بعد الشفاء من مرض خطير أصابه.. كانت بدأت تظهر جانبًا من جوانب شخصيته التي يكاد فيها إدواردو يتعرف على نفسه.. كان تعجبه جميع النساء اللاتي يقابلهن. وكان يفسر موقفه هذا على أنه انتقام من العالم من جميع الفرص التي حرمه منها أو رفض منحه إياها. كان يجد في كل واحدة منهن شيئًا ما، أو كان يتصور هذا، شيئًا مثيرًا وغامضًا لا بد من كشفه. كان يدرك هو نفسه أنه مثير للسخرية في شخصيته الجديدة..الدون جوان العربيد، وهو الذي كان في المدرسة الثانوية خجولاً لدرجة أنه كان يحمر وجهه، مثل فرجيل، لو وجه له أحد كلمة.

كانت الحقيقة- أو على الأقل هذا ما كان إدواردو مصرًا على اعتقاده – أنه عندما يبدأ المرء يشعر بثقل السنوات فوق كاهله، عندما يستيقظ صباح أحد الأيام ليشعر بأن تلك اللحظة الرهيبة في حياته قد

حانت، لحظة الحساب، ويدرك، مع الأسف، أنه ألقى بأفضل سنوات عمره في مهب الريح، وأنه لم يفعل أي شيء مما كان يود أن يفعله، هنا يدخل في سباق محموم، سباق تعويض الوقت الذي أضاعه إلى غير رجعة.. عندها يحاول المرء أن يوقف الوقت بألف خدعة وخدعة، بأخطاء لا تغتفر، واستهتار غير مبرر. تلك هي السنوات التي يصبح فيها الرجل أكثر ضعفًا من طفل، لأنه لا يجد سببًا معقولاً لضعفه.. ولكن هل أصبح إدواردو كذلك حقًا؟ هل هو الرجل الذي لا يزال كثيرون يحسدونه على نجاحه، حتى مع النساء؟

الآن أصبحت هناك لحظات لا يكون إدواردو قادرًا فيها على فهم ما إذا كان بعض المغامرات يعيشها كي يرويها، أو يرويها كي يعيشها. العلاقة بين الفن والحياة تتكمش بصورة متزايدة،حتى تكاد تختفي تمامًا.. ولكن كلما كان ينهشه القلق من المبالغة في علاقاته النسائية، كان يفتش عما ينفي عنه هذه المبالغة من خلال قصص لقاءته ومن الحكايات التي كان يريد سمعها برغبة محمومة- أي باختصار بدأ يعيش بكل كيانه داخل تلك القصص. كان يتذكر أحد كبار العلماء المتخصصين في العصر الأتروسكي، والذي عندما قارب التسعين من عمره، تدهورت حالته الجسمية دون أن تتدهور حالته العقلية، فقد ظل عقله يقظًا متقدًا؛ كان يحمس نفسه بالتخطيط للمستقبل، وشرع يكتب تاريخًا للأدب الأتروسكي الذي فتنه منذ أن كان صبيًا ورافقه هذا الشغف طيلة حياته الدراسية.

كان إدواردو كان قد ذهب عدة مرات لزيارته في بيته الواقع في مدينة روما؛ والمليء بالكتب والذي كان يعيش فيه عالم الآثار والمؤرخ الكبير، مع زوجته التي كف بصرها تماماً.

نظرت إليه الفتاة نظرة فضول وتساؤل دون أن يبدو عليها أي اضطراب. ربما أمكنها الاستفادة من وجوده كي تشير إليه بالطريق إلى المكتبة الوطنية. وربما استفادت من إقامتها القصيرة في بودابست لفحص وثائق جويس الموجودة هناك. وربما بحث أيضًا عن دراسة تبحث في الكلمات المجرية التي استخدمها جيمس جويس في كل من «عوليس» و«يقظة فينيجان». بالصدفة كان ذاهبًا أيضا إلى المكتبة الوطنية، بينما كانا يصعدان جنبًا إلى جنب المرتفع الذي يؤدي إلى القلعة، كانت تختلس إليه النظر كل حين. كانت- كما علم في المركز- أيرلندية؛ وصلت منذ يومين لحضور مؤتمر حول دور المثقفين في ثورة ٥٦، والذي كان من المفروض أن ينعقد في اليوم التالي في المعهد الثقافي الإيطالي، بمشاركة أطراف عدة من أبطال تلك الأحداث المأساوية.. ولم تكن خبيرة، ولكنها كانت مهتمة فقط ببعض الوثائق، بما في ذلك يوميات ضخمة تركتها العمة جرانيا التي كانت آخر رفيقات مفكر مجري.. كانت دارسة لتاريخ الأدب الأيرلندي، وكانت تعمل في تلك الأشهر على كتابة مقال طويل عن انتشار أعمال جويس في أوروبا الوسطى. كانت قد جمعت كثيراً من المواد البيبليوجرافية، ولكن كان كل شيء باللغة الإنجليزية، لأنها لم تكن تعرف عن لغات تلك البلدان سوى

قليل جدا. ولم تكن تعرف من اللغة المجرية سوى بضع كلمات فقط. كانت من المفترض أن تذهب قريبًا إلى سموزباتلي، الموطن الأصلي لبطل عوليس. كانت تعرف اللغة الألمانية على نحو جيد، وأقامت بالفعل شهرًا واحدًا في فيينا.

كانت تعمل في «كلية جامعة دبلن»، ولكنها أخذت إجازة تفرغ مدتها ستة أشهر، وكانت قد عاشت لمدة أربع سنوات مع شاب اسكتلندي في شقة في منطقة راثجار، على مرمى حجر من أحد المنازل التي كان يسكنها جويس. وأضافت مازحة إنه لم يكن من الصعب في دبلن السكن بالقرب من منزل جويس، فقد غيرت أسرته مسكنها، إذا أسعفتها الذاكرة، اثنتي عشرة مرة. وكان صديقها عالم رياضيات يقوم بأبحاث تاريخية عن النظريات الهندسية المستخدمة من قبل المصريين القدماء، مسترجعًا مسار طاليس ونظرياته حول الزوايا المتماثلة، بين المسلات والأهرامات، فرضيات وأطروحات وبراهين، وحساب طول الظل وحساب ارتفاع الأهرامات.. من الشغف الذي كان يقدم به الموضوع كان يبدو رائعًا، على الرغم من أنها - كما اعترفت - لا تفهم شيئًا في الهندسة. سافر هو إلى مصر بمنحة دراسية في الجامعة فقررت- بالاتفاق المتبادل- قطع الاتصال معه، كي يأخذا وقتًا للتفكير. هذا هو ما يقال دائمًا، ولكنهما ربما يعلمان بالفعل أنهما لن يعودا معًا مرة أخرى. ربما يتبادلان الرسائل عن طريق البريد الإلكتروني، وفي تلك اللحظة لم تكن تعلم شيئًا. كانت في الآونة الأخيرة

تشعر بالضيق من الحياة معه، كان في العادة لطيفًا رقيق الحاشية، ثم أصبح لا يطاق، كان يبالغ في الشراب وفي بعض الأحيان يأتي بأفعال غير مقبولة عند عودته من سهراته الطويلة في الحانات مع أصدقاء له. في بعض الأمسيات كان يعود مخمورًا تمامًا. لم يكن يستطيع أن يقف على قدميه، وكان يتظاهر بأنه يمارس الحب، أما هي فكانت تعتبر هذا التظاهر جريمة، وكانت ترفضه بشده.

هذا المظهر الوديع وهذه الملامح الرقيقة كملامح إحدى الإلهات رائعة الحسن التي كانت يرسمها بوتيشللي، كانت كلما أوغلت في الحديث تتقد حيويتها ويشتعل وذكاؤها، وتعطي الانطباع بأن لديها طاقة جبارة وجرأة نادرة، وباختصار لم تكن من أولئك النساء اللاتي يسهل قيادتهن بسهولة، فهي من ذلك النوع القادر على التحكم في أي رجل وترويضه كما تشاء. وجدا نفسيهما في غمرة الحديث قد وصلا إلى مقهى المكتبة كأنهما صديقان قديمان. تخلت عن ارتياب اللحظات الأولى، ونسي تمامًا مقصده الأصلي. استغل إدواردو غيابها، عندما ذهبت إلى الحمام لغسل يديها قبل أن تتناول حلوى جيدة الحشو، لتأجيل موعده مع جنرال يقارب التسعين من عمره وكان أحد قادة الثورة. لم يكن لديه أي نية لتركها الآن وقد أصبح الموقف مواتيًا.. عرض عليها مساعدتها.. هو أيضًا كان يحب جويس في شبابه، وإن كان مر على ذلك الآن عدة سنوات. وكما كانت نورا مع جويس، أكدت له أنها كانت امرأة مخلصة. عندما كانت في حالة حب مع صديقها لمدة

أربع سنوات لم تكن ترى أي شخص حولها.. الآن، لا تفهم لماذا تقول هذه الأشياء. قاطعها إدواردو وقال لها إنه يريد أن يقدمها لمدير المكتبة، والذي زاره كثيراً، لأنه أحد كبار خبراء الثورة؛ فقد يكون مفيداً لها في بحوثها ويتيح لها رؤية قسم المخطوطات، التي لم تكن متاحة للجمهور، وكثير من الوثائق والذى كان لا يزال في صناديق كرتونية ولم يتم جرده.

كان المدير رجلاً نحيفًا، يرتدي نظارة عتيقة، وله لحية صغيرة ما بين لحيتي نينو بيكسيو وتروزسكي. كان يعطي الانطباع بأنه فأر مكتبات، ولكنه لم يكن كذلك على الإطلاق. الشعر الخفيف الطويل كان ينزل منسابًا على حافة ياقة سترته. وكان مجاملاً جداً معها، بل وكان مجاملاً بما يفوق الحدود. لم يفهم إدواردو في تلك اللحظة، ما إذا كان مجاملات المدير لإرضائه أم للفوز برضا الآنسة الجميلة كورين. الشيء الذي كان يشغل إدواردو الآن، وبدا مضحكًا، أنه كان قد اعتبر هذه المخلوقة الرائعة جزءاً من نفسه.. كان يجب أن يتركهما.. لم يستطع البقاء أكثر من ذلك، فقد كان بالفعل قد أجل موعداً مهمًا وسيكون الغياب عن الجلسة الافتتاحية للمؤتمر في المتحف الوطني، حيث كان من المفترض أن يلتقي عضوة برلمانية كانت ضحية للثورة، خطأ لا يغتفر. لم يكن يعرف أين تسكن كورين.. وهكذا لم يكن بإمكانه أن يعرف كيف وأين سيجدها.. قالت له إنها تقيم في فندق صغير بالقرب من متحف الأدب، ولكن كان عليها أن تبحث عن شقة خاصة بها كي تمكث بها

لبضعة أسابيع.. عندما كانت تسافر إلى بلد لم يكن يكفيها البحث عن الوثائق التي تفيدها. كانت تحتاج إلى أن تفهم، وأن تعيش واقع المكان، أن تنغمس في الحياة اليومية.. أخذ منها موعداً في المساء، في بهو الفندق. ضغطت كورين على يده بحسم وهى تصافحه، بينما رمقته وهو ينصرف بابتسامة ممتنة.

حاول إدواردو تفسير هذه الابتسامة على طريقته. لم يفعل شيئًا طوال اليوم إلا أن يفكر فيها. المترجم الذي ساعده خلال اجتماعه مع تلك البرلمانية، لاحظ كيف كان شارداً وكان يكمل العبارات بدلا منه. كان المترجم يعرفه جيداً، فأدرك على الفور أنه كان مشغول البال تماما. وكان هذا وضعًا غريبًا على خبير مثله.. لم يحدث له من قبل تقريبًا، وعندما كان يحدث كان ذلك لأسباب أخرى. كان هناك شيء أقوى منه يسيطر عليه. كان عليه أن يدع الجميع يذهبون إلى الجحيم كي يذهب عندها. كان عليه أن يلحق بها في تلك اللحظة. من يدري ماذا كانت تفعل الآن؛ ربما صاحبها مدير المكتبة شخصيًا من خلال تلك الممرات المظلمة والمتربة، حيث تم حفظ المخطوطات، ومن يدري ماذا كان يقوله لها. وفيما كانت تفكر هى الآن؟ هذا عبث، هذا كله عبث. عبث ومثير للسخرية. يجب أن يهدأ، أن يسترد نفسه، أن يعود إلى نفسه. هل من الممكن أن يحدث له فجأة مثل هذا التحول؟ هل أصيب بالجنون في لحظات قليلة، ودون مقدمات. كان شاغله الوحيد، على الرغم من الجهد الذي بذل لإجراء هذه المقابلة، هو كيف ينهيها.. عاد إلى بيته بسرعة

وبدأ يبحث عن بعض الكتب في المكتبة التي لم يمسك بها منذ زمن طويل. كانت لديه بالمصادفة؛ فقد وصل بعض الصناديق عن طريق الخطأ وكان من المفروض أن يتم شحنه إلى البيت في أربينو، حيث وضع الجزء الأكبر من مكتبته. يجب أن يكون مستعداً لإقناعها بأنه كان يريد حقًّا مساعدتها في أبحاثها وأنه يعرف الموضوع جيدا. فتش في ملفاته عن وريقات كان قد كتبها قبل عدة سنوات ومقتطفات من مجلة تشير إلى بعض المصادر من أوروبا الوسطى استخدمها جويس.

استعاد من هذه الوريقات بحثًا كتبه قبل سنوات كثيرة، عندما كان يعد فيلمًا وثائقيًا تليفزيونيًا طويلاً عن الكتب الأيرلندية، عن أربعة منها بالتحديد، ومن بينها وجنبًا إلى جنب مع جويس كان هناك ييتس، وبيكيت، وأوسكار وايلد. كان قد بقي في أيرلاندا لعدة أيام زار خلالها كثيراً من الأماكن في غرب البلاد وجنوبها. وكان أيضًا قد صور في كلونجوو، حيث كان جويس وهو طفل تلميذاً بمدرستها الابتدائية. أما ييتس فقد تبعه حتى سليجو، في المقابر الصغيرة، حيث دفن الشاعر الكبير، وقرأ في الميكرفون الأبيات الشعرية التي كانت محفورة على شاهد قبره؛ بل وإنه ذهب إلى باريس لتصوير قبر وايلد.. وكان قد اختفى وراء مصلية صغيرة وتابع بالكاميرا فتاة معها باقة زهور تبكي أمام هذا النصب الفريد. تأثر بالعدد الهائل من الجماهير والذى يواصل الإعجاب بوايلد. أما بالنسبة إلى بيكيت، فقد كان الأمر أسهل بكثير، بسبب مساعدة قدمتها له شقيقة الكاتب، سيدة تتسم بالحيوية قدموها إليه في دبلن وحكت له نوادر عنه لم تنشر من قبل.

في نهاية البحث كانت هناك أيضًا ببليوجرافيا تحتوي على جميع المصادر المستخدمة في تصوير الفيلم.. تذكر أنه كان قدم مقالاً طويلاً لمجلة أسبوعية غن جويس. كان لا بد له من تدبير تلك النصوص، أو على الأقل نسخ مصورة لبعض المقالات؛ وكانت موجودة كلها في مجلد بني اللون، ولكنه لم يعثر عليه.. لا بد أنه مختفٍ في مكان ما، أو ربما كان لا يزال في بيته بروما.

ربما كان من الأفضل أن اصطحابها إلى المتحف؛ ثم، إن أرادت، كان يمكنه دعوتها لتناول مشروب مهضم. كان خيال إدواردو يرمح به.. ما الذي كان يمر برأسه؟ كان يبدو مثل أي صبي صغير.. استأثرت به المبالغة.. لم يكن ممكنًا.. من الضروري أن يتمالك نفسه ويضبط سلوكه. ربما كانت كورين لتخبره بأنها متعبة وأنها لم تكن تريد الخروج، أو أنه سيتعين عليها إعادة ترتيب ملاحظات اليوم؛ أو إنها كانت تود القيام بنزهة وحدها حول المدينة. كان يجب أن يكون مستعدًا لكل شيء، وكان مستعدًا للقيام بأي شيء حتى يراها مرة أخرى. من ناحية أخرى، لم يكن يستطيع أن يطلب المستحيل، وكان الموعد الساعة السابعة.. كانت أضواء جسر السلاسل مضاءة بالفعل، وبدت القلعة كأنها بطاقة بريدية. كما كان جريشام الذي تحول إلى فندق فخم، يظهر كأنه قصر ملكي. كان قد رآه في ظروف أخرى عندما كان لا يزال يجري ترميمه. على الجسر في ذلك الوقت، كان هناك كثير من الضباب وعدد قليل من السياح يعبرونه ويبدون أشباحًا يلفها الليل.. إنهم يتنفسون جو العالم

القديم، على الرغم من أن الترميم كان ضخما جداً وكانت ألوان بعض المباني براقة أكثر من اللازم.

في بهو الفندق كان هناك رجل مسن وزوجته المسنة، ربما كانا من السائحين الألمان، وكانا يتبادلان الحديث وهما جالسان على أريكة حمراء قانية كلح لونها بعض الشيء. جلس إدواردو على مقعد وثير في أحد الأركان وأخذ يشاهد الجسر المنير.. أدرك أنه بملابسه هذه يبدو مثل وكيل تجاري في انتظار العملاء. كان من المفروض أن يغير ملابسه ولم يكن لديه وقت؛ بل وإنه لم يفكر في هذا مطلقًا. كانت قد مر تقريبًا نصف الساعة وهي لم تعد بعد. ليس من المعقول أن تكون لا تزال بالمكتبة، لأنها تغلق أبوابها في الساعة السادسة.. ربما كانت مع مدير المكتبة في مقهى بوسط المدنية.

وصلت بعد قليل .. كانت تقف خلفه لاهثة.. اعتذرت عن التأخير، وقالت إنها لم تحسب الوقت جيداً.. في الوهلة الأولى كانت قد قررت أن تنزل بالقطار المعلق، ثم قررت النزول سيراً على الأقدام على طول الدرج الجانبي.. ربما صعدت غرفتها للحظات لتصلح من زينتها. كانت قد وجدت وثائق مثيرة للاهتمام في قسم المخطوطات بالمكتبة، ولكن ليس المخطوط الذي كانت تبحث عنه، كان نسخة أطول من تلك التى عهد بها جويس لأخته، وتم إرسالها إلى دبلن.. كان يتعين أن تعود لأيام عدة، وكانت بحاجة إلى شخص يساعدها في الترجمة. نزلت بعد قليل وهى مختلفة تماما.. ارتدت ثوبًا أنيقًا جداً، ووضعت قليلاً من الماكياج، مع

طيف من أحمر الشفاه وسحبت الشعر خلف الرقبة، وكانت تعطي الانطباع بأنها سيدة هادئة: «ها أنا ذا، جاهزة.. إلى أين نذهب؟»، تمتم إدواردو بشيء ما، ولم يحسم أمره؛ ثم تجلت له فكرة. قال لها إنه حجز في مطعم بالقرب من المتحف الوطني المجري، إذا وافقها هذا فيمكنهما أن يذهبا إلى هناك، حيث يقدمون لحومًا ممتازة، بل وأيضًا الأسماك، خاصة أسماك المياه العذبة.. ردت بأنها ليس لديها أي شهية على الإطلاق وأنها في العادة تتناول ليلاً وجبات خفيفة جداً.

كانت وجبات المطعم كالمعتاد، ولكن النادل الذي يعرفه الآن جيداً، سارع إلى إعداد طاولة في قاعة خاصة. كانت هناك طاولة أخرى فقط هى المشغولة من قبل أربعة من رجال الأعمال الذين كانوا يتجادلون حول البورصة وحول محركات الديزل.. وكانت لدى كورين الرغبة في الحديث، أن تحكي، وبدت أيضًا فضولية جداً. في السنوات الأخيرة عاشت في انعزال شديد، مقسمة بين الدراسة وحياتها مع صديقها.. لم تكن قد فكرت في شخص آخر. كان والداها يحاضران في الجامعة، وكانا دائمًا على سفر لحضور المؤتمرات والندوات، وهى أيضًا كانت تذهب معهما عندما كانت طفلة. كانت عائلتها كاثوليكية، والتحقت بمدرسة داخلية للبنات حتى المدرسة الثانوية، ثم قررت أن تعيش بمفردها، فاستأجرت شقة مع بعض رفيقاتها من الجامعة، وأثر الدين بشدة على حياتها. حاولت مراراً وتكراراً التمرد، فنالت عقوبات كثيرة على ذلك في المدرسة الداخلية، بما في ذلك العقوبات الجسدية، لأن

الراهبات كن صارمات. وقد جعلها هذا تقاوم بعض طرق التفكير والتصرف.. كانت تحكي تفاصيل حياتها بطريقة أدهشت إدواردو. كيف يمكن لامرأة أن تبوح بكل هذه الأسرار لشخص لم تلتق معه سوى منذ ساعات ليست طويلة؟ ربما كان من شأنها أن تحكيها لأي شخص، ربما كانت تريد أن تتخلص من الماضي،، كانت تريد تغييره، أن تستعصم بالقوة، أن تستعيد حياتها في المرة الأولى التى مارست فيها الحب مع صديقها كانت التجربة رهيبة حقًا. توقف شيء ما بداخلها لم تستطع التغلب عليه. كان الشعور بالخطيئة هو الذي يشلها. كانت لديها رغبة مجنونة، إلا أنها لم تستطع التغلب على هذه العقبة التي بدت مستعصية على الحل. سخرت صديقاتها منها.. ربما لم يكن الدين هو السبب، وربما لم تكن متأكدة من حب صديقها.. هذا الحاجز تغلبت عليه ذات مساء صيفي، بعد عودتهما من السينما. ساعتها كان طيبًا وصبورًا ثم تغير.

كانت تحكي هذه الأشياء ببساطة، كأنها كانت تحكيها لنفسها. وطلبت وهي شاردة سلمون مشوي وسلطة .. كانت عادة لا تشرب الخمر، إنها كانت تشوش أفكارها، ولكنها أرادت أن تجعل من ذلك المساء استثناءً؛ فطلب إدواردو زجاجة من النبيذ الأبيض المصنوع في تلال بالاتون والمعبأ في بالأتونفورد.. كان نوعا أوصاه النادل به؛ ثم مياهًا معدنية فوارة. وصفت له منزلها بالتفصيل. سردت الكتب التي كانت تملكها كافة. لماذا قررت الحصول على درجة دكتوراه في جيمس جويس؟ في المقام الأول لأنها أرادت أن تتخطى القيود؛ ولكن أيضًا لأنها

عاشقة لجويس. كانت العمة جرانيا هى التي نقلت إليها هذا العشق. كانت تأخذها معها إلى جميع المؤتمرات التي تنظمها جمعية أصدقاء جويس، بل وإنها كانت في يوم ١٦ يونيو تتقيد بصرامة بالنظام الغذائي لعوليس، الرواية التي تمتلك كثيراً من طبعاتها. اعترفت له كورين بأنها جاءت إلى بودابست أساسًا بسبب تلك المخطوطة التي عرضتها عليه صباح اليوم في مركز الثورة. كانت تود لو سلمتها إلى ابنة أخت الكاتب المنفي والتي تمتلك باقي مكتبته. كانت هذه المخطوطة الضخمة مكتوبة باللغة المجرية في معظمها وقد حفظتها العمة جرانيا باعتزاز؛ لأنها كانت تتحدث أيضًا عن حياتهما معًا.. ولكن الآن بعد أن رحلت العمة، ربما كان من العدل أن يعرف العالم كيف عانى الكاتب المجري إمري كيرتيش بسبب هذا الابتعاد القسري عن الوطن، وكيف كانت ترى كل تلك الشخصيات من الذين يتباهون الآن على خشبات المسارح باعتبارهم من الثوريين السابقين.

ذات مرة قال جويس لماكس إيستمان بابتسامة خبيثة: «ما أوده من القراء هو أن يكرسوا حياتهم كلها لقراءة أعمالي»، وقد أخلصت العمة جرانيا للرسالة أيما إخلاص. لم تفعل شيئًا إلا قراءة وإعادة قراءة أعمال آخر من استطاع قبول رواية عوليس.

كان من رأي العمة جرانيا أن جويس- مرددة أحد النقاد- هو أعظم من اهتم بالتفاهات، ولكنها تفاهات عظيمة. كانت تستشهد بعبارة للكاتب تقول: «ليست هناك شخصية في كتاب لي تساوي أكثر من ألف

جنيه»، ولا حتى هو - جويس نفسه - عند النظر إليه، كان يساوي كثيراً، وهو على هذه الحال من إهمال الملبس، وشعره المتمرد على الأمشاط، وهذا الوجه الأحمر الفاقع الذي يشبه وجه نيرون، ويسقط في معظم الأحيان في حالة من العمى.

وبينما كانت كورين تتحدث كان إدواردو يشرد بذهنه.. ظهرت أمام عينيه فجأة صورة أيروتيكية وتخيلها وقد فتحت ساقيها كأنهما حصان مجنح ابتلعته كأنها طاحونة وامتصته كأنها دوامة في بحر. مثل هذه الهواجس من تخيل النساء في مواقف إباحية، أصبحت تطارده، وبدأت تثير قلقه.. كان يشعر بالانزعاج ولكنه حاول أن يخفي انزعاجه.

الفصل الثالث عشر

ذات ليلة باغتتها إدواردو وهي في تلك الحالة، من تغير المزاج المفاجئ.. كانت تجهش بالبكاء، كما لو كان يتحتم عليها التكفير عن خطايا العالم كله. ذكرت بتشوش أجدادها، وكلبها، والرجل الذي كانت تحبه، وأمها، وأباها، وشرور الجنس البشري.

التقيا في محل صغير في ضواحي المدينة. كان هناك قليل من الناس يجلسون على الآرائك أمام طاولات من الخشب الصلب. شرب بعض العملاء البيرة وكانوا يثرثرون بفجاجة، وكان آخرون يلتهمون أطعمة غارقة في صلصات ملونة.. كانت رائحة الهواء نفاذة. وكان هناك البعض يشاهد تليفزيونًا عتيقًا معلقًا في إحدى الزوايا يعرض فيلمًا قديمًا مليئًا بالمشاجرات والسيارات الأمريكية المحطمة التي كانت تتحرك في مساحات واسعة. كانت تصل من الشوارع ضوضاء حركة المرور لم ينقص منها إلا قليل بفضل الحوائط السميكة للبيت المنخفض الذي يتميز عن باقي بيوت ذلك الحي، والتي كانت تتكون من عمائر بثمانية أو عشرة طوابق تم بناؤها في أثناء النظام الشيوعي في أعوام الستينيات.

اعترفت بشيء من عدم الارتياح، وعلى استحياء، بأنها لم تحس قط بالمتعة مع رجل، ولا حتى مع الرجل الذي يعيش الآن بعيداً، والذي كانت تحبه منذ عدة سنوات. لم تكن تستطيع أن تفسر سبب تعلقها بذلك الرجل الذي لا يكف عن الاتصال بها هاتفيا في جميع الأوقات. لم يكن هناك مستقبل بينهما؛ لأنه كان متزوجًا وليست لديه نية لترك زوجته، ولكنها كانت - على أي حال - تحبه وكانت ستتعذب لو أنه قرر تركها. كان إدواردو ينظر إليها دون أن يفهم. كان يشاهد في لمعة عينيها شيئًا وسطًا ما بين الخوف والمتعة، الخوف من أن تمنح المتعة وتحصل عليها، الاستمتاع الغريب الذي تحس به عندما يكتشفون أمراً، ضد إرادتك، فلا تشعر بالمتعة إلا في اللحظات التي تخون فيها.

وروت حادثًا عن طفولتها ترك أثرًا غائرًا في حياتها. ففي ظهيرة صيف، وكانوا في إجازة على البحيرة مع عميها في بيتهم، تلصصت عليهما وهم يمارسان الجنس. تابعت المشهد بجميع تفاصيله من كوة بالسقف، حيث كانت تذهب كلما أرادت أن تبقى وحدها، بين كراكيب مختلفة. كان يسمعها أثناء المضاجعة كلمات إباحية وكانت تجيبه بألفاظ لم تسمعها منها من قبل. . استولي هذا المشهد على عقلها وأثر فيها كثيرا. وكان يخطر ببالها في كل مرة تمارس فيها الحب.. كانت تشعر برجل بلا ملامح يلهث جاثما فوق صدرها بوحشية. كانت تحس بألم عظيم، بيد أنه يثيرها، ولهذا كانت دائمًا ما تبحث عن عشاق ممن يفوقونها كثيرا في السن .

وذات مرة عثرت في خزانة ملابس عميها على كتاب من الكتب الممنوعة بين ملاءات قطنية مزهرة. كان عن كتاب «الكاماسوترا» يحتوى على العديد من الصور لأوضاع جنسية عجيبة. كان عمها يناضل في أثناء الثورة، بينما أصر والدها على موقفه.

كان أستاذ اللاتينية بالمدرسة يناديها بمايا، لأنه عندما تحدث أثناء الدرس عن هذه الإلهة القديمة التي كان يقدسها كل من الإغريق والرومان، وأخبرهم بأن شهر مايو مشتق من اسمها، قالت إنها كانت تود لو كانت قد سميت بهذا الاسم، لأن مايو كان هو شهرها المفضل، ثم أصبحت في غاية الفضول عندما قال المعلم إن مايا كان مرتبطة بالسماء في الليل، ولم تكن تحب المشاركة في الاجتماعات مع الآلهة، وكانت تعيش منعزلة في أحد الكهوف بجبل سيليني، بأركاديا، حيث استطاع زيوس أن يتردد عليها ليلاً مستغلاً نوم هيرا.

تذكرت أيضًا بعض الزيارات الليلية التي تلقتها، في جنح الظلام، وأيقظتها يد كانت تكتم فاها. لم يشعر إدواردو على الإطلاق بأنه أب اعتراف ولم يكن هذا هو السبب في تكرار لقاءاتهما العديدة. كانت تحتفظ بالرسائل التي خاطر العم بإرسالها إلى أمها من السجن فى صندوق خشبي، مخبأ في خزانة الملابس، ود الكثيرون الحصول عليها، إلا أنها لم تشأ أن تتركها لأي شخص، لأنها كانت متأكدة من أن مثل هذه الرسائل كفيلة بإحداث زلزالاً سياسيًا بسبب إماطتها اللثام عن بعض الأسرار التى تتعلق بشخصيات كانت ولا تزال تهيمن على

المشهد. كانت خائفة حتى من الاحتفاظ بها، فربما كان أحد كبار رجال الدولة على علم بوجــود هذه الخطابات، حــتى لو لم يكن على علم بمحتواها؛ كان يمكنها أن تظهرها له، لو أقسم لها أنه لن يكتب شيئًا عنها أو يكشف أمرها لأحد، ولكن ليس في ذلك المساء. كان قد أفرغا زجاجة كاملة من النبيذ دون أن يشعرا. عندما خرجا من ذلك المحل الشهير سارا متعانقين يترنحان في حارة مظلمة من التراب المدكوك، كانت تؤدي إلى إحدى تلك العمائر الضخمة.

لم يتقابلا أو يتحادثا هاتفيا لفترة طويلة، ثم ذات يوم التقيا صدفة جنبًا إلى جنب، أمام لوحة ميهالي مونكاشي في إحدى القاعات المكتظة بالجاليري الوطني.. هذه هى المرة الثالثة التي يزور فيها إدواردو هذا المعرض، فتنته أعمال مونكاشي الذي كان يعرف عنه القليل جدًا؛ فقد قرأ عنه للمرة الأولى منذ سنوات كثيرة، وهو يتصفح بالصدفة إحدى السير المكتوبة عن جويس، عندما كان يقوم بتحضير الفيلم الوثائقي عن الكُتّاب الأيرلنديين. كان جويس قد كتب في شبابه مقالاً عن الرسام المجري العظيم، خاصة عن لوحته العظيمة «هاهوذا الإنسان». تذكر إدواردو أن جويس كان قد وصف هذه اللوحة بأنها عظيمة ونبيلة، ومأساوية، وتعبير عن شخصية تمزج بين الملك والسلطة، ما يجعله بطلاً لدراما واقعية.

كان إدواردو قد توقف طويلاً أمام تلك اللوحة حتى في زيارته الأولى للمعرض. كانت اللوحة تمثل طفلة صغيرة تبكي وتجفف الدموع

بيد، بينما تعانقها طفلة أخرى وتواسيها. «لا تبك»، كان هذا هو العنوان الذي تحمله بتاريخ عام ١٨٦٥. كانت الطفلتان وحيدتين على خلفية من مرج أخضر، علاوة على سياج وبعض الأشجار وكوخين. لم ينجح في أن يفسر لنفسه السبب، ولكنه ظل مفتونًا بالموضوع أكثر من جمال اللوحة التي استوقفته أكثر من لوحة «هاهوذا الإنسان»، ربما لأن تلك الصورة ذكرته بحادث في طفولته مع روزيتا، وهي طفلة من أربينو، هربت ذات يوم من البيت ولم يستطع أحد العثور عليها. كان إدواردو يعرف أنه كان ينبغي عليه أن يبحث عنها. عثر عليها في آخر أحد المروج، خلف إحدى الشجيرات، وكانت تبكي مثل هذه الطفلة تمامًا. حاول تهدئتها، لكن دون جدوى.. أبلغته أن والديها يتشاجران كل ليلة، وأن هذا كان يرعبها. أما الأخ الأكبر فبدلا من رعايتها وتهدئتها، كان ينسل دائمًا إلى فراشها ويجبرها على ألعاب مهينة.

عندما التفت التقت عيناه بعينيها اللامعتين البراقتين كما لو أنها توشك على البكاء... وقال إدواردو باللغة الإيطالية: «صورة جميلة»، متظاهرًا بأنه لم يتعرف عليها: «نعم، إنها حقًا جميلة»، أضافت هي، وقد أدركت اللعبة. شعر إدواردو برجفة في صدره.. لقد أراد لهما القدر أن يلتقيا مرة أخرى، وتذكر أنه كان قد قرر عدم الذهاب لرؤية المعرض مرة أخرى. كان يعرف أنه اليوم الأخير، وأن القاعات سوف تكون مكتظة، ولكنه كان يعلم أيضًا أن إدارة قاعة العرض كانت قررت تمديده لمدة أسبوعين.. في ذلك اليوم كان يريد الذهاب إلى شنتندر، كما كان يفعل

منذ فترة في أيام الآحاد.. كان يأخذ القطار الصغير أسفل جسر مارجريت وفي أقل من نصف الساعة يصل إلى هناك. كان يجلس في المقهى في الميدان الرئيسي أو على كورنيش نهر الدانوب. كان يذهب في وقت متأخر، عندما تكون جموع السياح قد غادرت الحواري الضيقة والمحال الملونة في المدينة. كان دائمًا ما يحمل معه كتابًا ودفترا ويكتب هناك، وهو يرتشف مشروبًا باردًا.

كان القطار يمر عبر «أوبودا»، ويسير بمحاذاة مواقع للآثار الرومانية، حيث كان إدواردو وفي كل مرة يعتزم الذهاب، في محاولة لتحديد موقع المصنع والأماكن التي كانت جبرييلا تصفها عندما تتحدث عن «أوبودا»، ولكنه كان دائمًا يؤجل الزيارة. ذات مرة ذهب إلى شنتندر مع ذلك الكاتب المسرحي المسن الذي كانت جبرييلا قد تحدثت عنه في أثناء المقابلة. وعلى الرغم من أنه كان قد جاوز الثمانين عامًا بكثير، ولكن كان لا يزال شاحذ الفكر. هذا الكاتب المسرحي المسن، فضلاً عن حديثه له عن الثورة حكى له عن بلدته التي ولد فيها، وكيف نشأ حبه لإيطاليا؛ ومن ثم فترة إقامته الطويلة في فلورنسا للتدريس في الجامعة، عن أعماله الدرامية التي تم تمثيلها على المسرح في إيطاليا والتى فاقت ما تم عرضه في بلاده نفسها.

الفصل الرابع عشر

«غريب قدري هذا»، فكر إدوارد في إحدى تلك الأمسيات التي كانت تهبط عليه مثل الصخور. ففي حين كان الآخرون يحلمون ويجتمعون في فرش دافئة، كان هو في ذلك المساء يصر على التوهان في شوارع المدينة، في صمت بدا شبحيًا، وأضواء أعمدة الإنارة تنعكس على حصى الأرصفة التي بللها المطر. كان شعره مبللاً وملابسه قد غرقت بالمياه وتكاد تلتصق بجسده. كان يعرف أن المرض سوف يصيبه من جديد، وأنه سوف يصاب بالتهاب الجيوب الأنفية، ولكن لم يأبه كثيرًا لهذا. كان عليه أن يذهب.. لكن إلى أين؟ ولماذا؟ لماذا يذهب مع تلك الفكرة السخيفة بأنه لا بد سيعثر عليها وأن يقابلها في مكان ما؟ قدح زناد فكره كي يتخيل أين يمكنه أن يجدها.. ربما في السينما مع صديقتها التي تقابلها كل حين! أو ربما بقيت في المكتبة لفترة أطول من أجل أبحاثها وأغلقت الهاتف. وكان يدرك تمامًا أنه كان يبالغ، وأنه يكاد يصبح مضحكًا. في المنزل أبقى الرد بالبريد الصوتي.. لم يكن هناك شيء يدعو للقلق. من ناحية أخرى، لم يكن بوسعه أن يزعم أنه ظل بالمنزل من أجل انتظار مكالماتها، وهو أمر كان ينسى أيضًا في

بعض الأحيـان أن يفعله. ألم يقل لها إنه سوف يعود بعد أسبوع؟ من المؤكد أنها ذهبت إلى المطعم مع صديقتـها التي كانت تنوه في بعض الأحيان بوجودها. صديقة كانت تحبها وتكرهها، لأنها أحيانًا ما كانت تتحدث عنها بحماس، وأحيانًا أخرى كانت تعلن ضجرها منها. في بعض عطلات نهاية الأسبوع كانت صديقتها تذهب لقضاء الوقت في الحديث، ورواية الأخبار، هكذا كانت تقول. وفي بعض الأحيان أيضًا كانتا تبالغان في الشراب فتناما على الأريكة متجاورتين، ومصباح الطاولة مضيء، وشاشة التليفزيون أصبحت بيضاء مضببة. وفي اليوم التالي كانتا تناما حتى وقت متأخر. ومنذ أن اشترت «دي في دي» وهي تستعير من مكتبة الفيديو على ناصية الشارع بعض الأفلام لتشاهدها معها. لم تكونا تتفقان دائمًا حول الأفلام التي تحبان أن يرياها.. كانت تحب أن تشاهد القصص الواقعية. أما صديقتها فقد كانت رومانتيكية، وكانت عندما تحب رجلاً لا ترى في الوجود غيره، ولا تفكر في شيء إلا فيه.

كان إدوارد يعرف جيدًا أنها لا تحب طهو الطعام. في المرات الكثيرة التي جمعتهما في المنزل كان هو دائمًا من يتولى تحضير الطعام، بل وإنه أيضًا أحرق الصلصة أكثر من مرة، فقد كانا يمارسان الحب وينسيان أمر المطبخ تمامًا. كانت الرغبة تداهمهما على حين غرة وتستولى عليهما. كان يكفي أن ترمقه بنظرة معينة حتى يبدأ في لحظات عناقهما الحميم.. كان يضاجعها على أي وضع، سواء على مائدة في المطبخ أو ملتصقين إلى جدار أو فوق مقعد.

لماذا أغلقت هاتفها؟ صحيح أنها فعلت ذلك من قبل أكثر من مرة، ولكنها كانت تبلغه قبلها. وكثيراً ما أبقته مغلقًا طوال الليل؛ ثم تعيد فتحه في وقت معين من اليوم التالي، خصوصًا عندما تكون صديقتها عندها.. كانت تقول إنها لا تريدها أن تعلم بأمر العلاقة بينهما. حافظت على سرية العلاقة بدهاء شديد. كان إدواردو قلقًا حقًا عليها. سوف تعود قريبًا، وتفتح هاتفها من جديد، وسوف تعود الأمور كلها إلى نصابها الصحيح، عندئذٍ قرر العودة إلى البيت، والاستحمام وأن يغرق في قراءة كتاب دون التفكير في شيء آخر. كان دائمًا ما يفعل مثل هذا عندما يريد الاسترخاء. من ناحية أخرى، كان قد اشترى كثيراً من الكتب الجديدة، وكان متشوقًا لأن يفصصها جميعًا، كما يفعل دائمًا. في البداية كان يتصفحها - تلك الكتب - بأن يقرأ شيئًا من هنا وشيئًا من هناك؛ ثم يقرؤها بعناية، ويضع خطًا تحت بعض الكلمات أو العبارات بقلم رصاص.

سار كثيراً دون أن يدري، ولم يدرك أنه قطع شوطًا طويلاً من الشارع وعبر جسر السلاسل وصعد حتى القلعة، وهو يتابع الطريق الواسع، حيث كانت تتراص حافلات السائحين. كانت العودة إلى المنزل متعبة، لأنه كان متعبًا، ولم يكن يرغب في السير بسرعة حتى لا يعرق، فكان يكفيه ما به من بلل بسبب المطر.. في الحمام عاد طيفها إليه فجأة، بصورتها التي رآها للمرة الأولى. كانت قد غادرت قاعة المؤتمرات الدولية دون أن تنظر حولها، وعبرت الممر بخطوة أنيقة، ثم توقفت للحظة

أمام مجموعة صغيرة من الرجال وأشارت إليه بالتحية، وهي تنظر إلى إدواردو دون تركيز.. اندهش من هذا الموقف؛ ثم سأل صديقه الصحفي الذي كان معه إذا كان يعرف من تكون هذه المرأة ولكن دون إلحاح. لم يكن يريد أن يصرح له بأن هذه الفتاة الشابة كانت قد أضاءت خياله فجأة.. وتابعها بنظره ورآها تتجه نحو محطة مترو الأنفاق. تعجل إدواردو في تحية الآخرين ومضى مباشرة نحو مترو الأنفاق. كان يأمل في اللحاق بها، ربما عند مدخل السلالم المتحركة. وربما قد لا تركب المترو، بل تظهر على الجانب الآخر من الطريق لأن مدخل نفق عبور المشاة كان يبدأ أيضًا من هناك. وربما كانت تسكن في أحد المنازل القديمة في شارع وسط البلد الطويل. كان مترددًا ما بين تسريع وتيرة خطوته أو إبطائها، حتى يراها إذا ظهرت على الجانب الآخر من الشارع.. أسرع الخطى. لو ركبت المترو قبل أن يلحق بها لفقدها إلى الأبد؛ أما إذا لم يجدها في محطة المترو بعد أن ينزل السلالم المتحركة، فيمكنه أن يصعد إلى الشارع من جديد ويتابعها، على الأقل ليعرف أين تسكن. عثر عليها في نفق عبور المشاة تسير ببطء نحو السلالم المتحركة.

لم يكن هناك أحد.. هي فقط مع اثنين من السكارى سقطا نائمين في ركن تكدست فيه الصناديق والكراتين وفترينات المحال التجارية التي كانت تشكل مساحة سداسية وكانت كلها مطفأة الأنوار.. في تلك اللحظة طغى عليه خجله فجأة، ذلك الخجل الذي خانه لمرات كثيرة، ولم

يسمح له بالتوقف والتحدث معها بأي حجة. لم يرد أن يظهر كأنه متطفل يزعج سيدات ليلاً.. مر من أمامها دون أن يحييها، ولكن كان لديه أمل أن تأخذ القطار نفسه؛ عندما رأى أنها كانت تسير في الاتجاه المعاكس ساءت حالته كثيراً. وكما لم يحس بأنه يستطيع إيقافها أحس الآن بأنه لا بد أن يأخذ القطار في الاتجاه المعاكس. قد تضيع منه فرصة أن يتعرف عليها، وربما لن تتكرر تلك الفرصة. استولت على تفكيره طيلة ركوبه مترو الأنفاق. من عساها تكون؟ لماذا ذهبت وحيدة إلى مؤتمر حول الثورة؟ ولماذا، وهي تمر، ألقت بالتحية وهي تنظر إليه هو؟ هل تعرفت عليه نظراً لأنها تشاهد التليفزيون الإيطالي؟ هل كانت متزوجة؟ هل كانت مطلقة؟ هل كان لها خطيب مسافر أو زوج لا يحب أن يذهب إلى المؤتمرات خوفاً من الملل، حتى ولو كان ذلك المؤتمر باعتراف الجميع أكثر المؤتمرات متعة عن خونة الثورة؟ أو كان لها عاشق لم تستطع أن تصطحبه معها؟ ماذا كانت تعمل؟ ما دخلها هي بالثورة؟ من أناقة ملبسها ووقارها كنت تستشف أنها من طبقة رفيعة. خط مترو الأنفاق الذي استقلته كان يذهب إلى ضواحي المدينة، فهي لا تسكن وسط المدينة إذن. لم تكن تستطيع تحمل الحياة في وسط البلد؟ ألم تكن لديها حتى سيارة حتى لا تستقل المترو في تلك الساعة من الليل؟ ربما كانت موظفة في وزارة ما.. أو أستاذة جامعية. لم يكن يبدو عليها سيماء أساتذة الجامعة. وماذا عساها أن تحاضر في الجامعة؟ لا بد أن تكون أستاذة تاريخ حتى تذهب إلى مؤتمر بمثل هذا العمق. ربما كانت موسيقية، أو ممثلة.. لا، مستحيل أن تكون ممثلة.. كانت تبدو متكتمة

جداً ومتحفظة أكثر من اللازم، وربما حتى خجولة. عندما وصل إدواردو إلى منزله قال لنفسه إنه كان غبيًا حقًا حتى يخسر وقته في التفكير في امرأة من المؤكد أنها شغلته، ولكن ربما لن يلتقيها أبداً.. وحاول نسيانها. ألم ينس من قبل نساء كثيرات عرفهن وأحبهن، فما بالك بتلك التي لم يكن حتى يعرف من تكون.. ولكن ربما بسبب هذا كان مفتونًا بها.

وهو يأخذ حمامه وجدها أمامه وتخيلها عارية، مثل المرة الأولى، بجسد طري ونهدين مثاليين، ورآها تداعبه وتمسد بالصابون كل جسده. كانت قد حلت شعرها وأصبح وجهها يبدو أكثر استطالة، وعيناها السماويتان أكثر إشعاعًا مما رأى فيهما في تلك الليلة. كانت تعرف كيف تمسده أكثر من أي واحدة أخرى؛ ثم دخلت تحت الدش هى الأخرى واستغرقا في قبلة طويلة.

كان في تلك الفترة يتلقي كل حين امرأة شابة كانت حديثة الزواج، وكان عشقًا كبيراً، حبًا مجنونًا، ظل لفترة طويلة يسلب عقله.

كان إدواردو يفهم لماذا يرتكب بعض الرجال وبعض النساء حماقات بسبب الغيرة.. كان يحس بأشياء لا توصف.. شعر بأنه بدأ فترة معاناة وكان بالتأكيد يعطي وزنًا مفرطًا للموضوع، وعلى الرغم من أن الاتفاق كان واضحًا جداً، كما حدث مع كلارا.. سوف يكونان صديقين حميمين يتعاملان على نحو جيد.. لكن لا شيء أكثر من هذا. لم يكن على أي منهما أن يتخلى عن حياته؛ ثم شيئًا فشيئًا مرت الأيام وأدرك أنه كان مرتاحًا معها، وكان يحب سماع صوتها، وعندما لم تكن

تطلبه هاتفيًا كان يراوده شعور بالاكتئاب ويفكر فيها بشكل مهووس. كان يقاوم قليلاً ثم كان يطلبها هو؛ بل وبعد حين كانت تنعكس الأدوار. كان هو وحده الذي كان يهاتفها. وعندما لم تكن تجيب كان يحزن.. ثم بدأ يشعر بأنها قد بدأت تسأم منه. المرات الأولى التي تقابلا فيها كانا مختلفين أحدهما عن الآخر. كانت تقول إنها لم تحب سوى مرات قليلة، ولكنها كانت مكثفة. كانت تتحدث قليلاً جداً عن حياتها وأسرتها وأصدقائها. مرة واحدة فقط، ذات مساء، تركت لنفسها العنان، وحكت له عن صديقتها التي جن جنونها عندما علمت بأن فتاها يخونها. انتهى بها الأمر في المستشفى، وعندما ذهبت لتزورها لم تستطع حتى التعرف عليها. حكت له أيضًا عن خطيبها الأول، وعن المرة التي مارست فيها الحب، ثم عن خطيب آخر الذي كان من قبل خطيبًا لأعز صديقاتها. كان يدرس التاريخ في الجامعة، وكان الوحيد الذي يقرأ الخطابات التي تأتي من السجن المسجون فيه عمه، ويسلمها لأصحابها مع الحرص على عدم إظهارها لأي شخص.

خرج إدواردو من الحمام، ونسي تمامًا أمرها وعادت إليه هواجس الموت. كانت هناك فكرتان تشغلان رأسه أكثر من غيرهما من الأفكار، الجنس والموت. غالبًا ما كانت الفكرتان تقترنان معًا وتشكلان مزيجًا متفجرًا. أما الجنس – مع أنه كان غالبًا ما يستغرقه تمامًا – فلم يكن هدفه في الحياة، ولكن الآن بعد أن بدأ العمر يمر، كان يشعر تقريبًا بأن الأرض تميد تحت قدميه، وبالخوف من أن تفارقه متعة الجنس بلا رجعة.

الفصل الخامس عشر

تذكر إدواردو أنه بينما كان في سن الثالثة عشرة كان يهاب الموت. ففي طفولته شاهد مرض وذبول شاب كان يسكن بالقرب من منزل جده بأربينو، وشاهد الموت البطيء للشاب.. كان فيروتشو شابًا يافعًا وجميلاً وطويل القامة. كان مفعماً بالصحة والحيوية قبل أن يصيبه المرض. كان قد اشترى دراجة بخارية حمراء جديدة، وكان يبدو كأنه يطير مثل الريح، بينما يجري بها مسرعًا في شوارع المدينة المليئة بالأتربة بين تلال شيفيتا، وسمح له في إحدى المرات بركوب دراجته البخارية في السر، ومن دون أن يعلم جدية بالأمر، فشعر إدواردو بأنه ملك فوق تلك الدراجة الطائرة، بينما وقد تعلق بوسط الشاب الضخم القوي. وذات يوم شعر فيروتشو بالإغماء وشحب وجهه، وسقط على الأرض مغشيًا عليه، أتى الطبيب - كان أيضًا من راكبي الدراجات - ولم يستطع الطبيب أن يحدد نوع المرض الغريب الذي أصابه، فقرر إدخاله مستشفى فروزينوني، وفي هذه الفترة كان دخول الإنسان المستشفى أمرًا غير عادي، فكان نادرًا ما يوصي الطبيب بدخول المستشفى، ففي الغالب كان المريض يتلقى العلاج بمنزله ويتابعه الطبيب مقابل ما يعطيه

له الفلاحون الفقراء من بعض منتجات الأرض الزراعية والأجبان والدجاج والأرانب، فضلاً عن خدمات يؤدونها لزوجة الطبيب، مثل ذبح الدجاج والأرانب؛ لأنها كانت تتأثر بمنظر الدم، حتى إن كانت تسعد بطبخ هذه الحيوانات البرية ذات اللحم الطري والطعم الرائع. وفي إحدى المرات بالغ جالدينو دي جيوفيناتسو مبالغة شديدة حين أهداهم قرابة نصف القنطار من الكمثرى. إن هذه الكمية تكفي لإطعام جيش. وحين أبدت له زوجة الطبيب اعتراضها على الكمية وفي منتهى الأدب. ما كان منه إلا أن جاوبها بعفوية شديدة قائلا لها.. لا تقلقي سبب الكمية؛ لأن الحقول كانت مليئة بالكمثرى وفاضت حتى أكل منها الحيوانات.

وحين عاد فيروتشو من المستشفى إلى منزله بعد عدة أسابيع، بدا أنه قد تعافى تماماً، لكنه لم يكن نفس الشخص الذي اعتدناه، أو على الأقل هذا ما قالته الجدة لإدواردو الذي اعتاد أن يذهب هو ووالداه كل نهاية أسبوع لتمضية بعض الوقت في أربينو.. فلم يعد فيروتشو جريئًا مبتسماً واثقًا من نفسه حين كان يطير كالسهم بالدراجة البخارية على الطرقات الريفية المتربة. لقد فقد وزنه وشحب وجهه. كان الجميع يأمل أن يعود لحالته الطبيعية كسابق عهده، شابًا جميلاً ومفعمًا بالحياة، وأن الشحوب ما هو إلا نتيجة الفترة التي قضاها بالمستشفى بعيداً عن الريف، وأن الهواء النقي سوف يعيد لوجهه لونه الوردي المعتاد، إلا أن فترة النقاهة طالت أكثر من اللازم، فكان الطبيب يذهب إليه كل يوم

لإعطائه الحقن والدواء. أما هو فأصبح يجول في الساحات مرتديًا بيجامة مخططة بالأزرق والأبيض. وكان منظر فيروتشو مثيرًا للسخرية وهو يسير بالبيجامة التي كانت تشبه زي المساجين. قالت الجدة: ليس هناك شخص في الريف يرتدي البيجامة، وما من أحد يتجول في الساحات، بل وبين الحقول وهو يرتدي بيجامة. كان الفلاحون ينامون في ملابسهم الداخلية المصنوعة من الصوف الذي تغزله نساء البيت في الليالي الشتوية الطويلة.

ومرت الشهور وبدا أن فيروتشو قد عاد لحالته الأولى وتبدل لون وجهه وعاد يركب دراجته ويطير بها كالبرق، بل وعاد لممارسة عمله في التجارة. وبعد فترة وجيزة تزوج؛ وكان زواجه قد تم في عجالة ودون المجاملات المعتادة في الخطوبة على عكس التقاليد المتعارف عليها في حينها والتي كانت تطيل من فترة الخطوبة. وكل ما التزم به كانت الفترة المطلوبة حتى تعلن الكنيسة عن نيته في عقد القرآن. وفي ذات ليلة، في حضور اثنين من الشهود وعدد قليل من المدعوين عقد قرانه على الفتاة.. كانت تدعى أنجيلينا، وإن لم تكن طويلة، لكنها جميلة ومليئة بالأنوثة والحيوية. كان صوتها أجشّ وعيناها شديدتي السواد مثل شعرها القصير، كما كانت الموضة آن ذاك. كانت تبدو أنها تحب فيروتشو حبًا شديدًا وفي الحفل الذي أقاموه ليلاً بعد عقد القران، كانت تبتسم طوال الوقت وهي توزع على المدعوين حلوى اللوز الفاخرة عن اليمين وعن اليسار. في الأيام الأولى لزواجهما كان العروسان نادرًا ما يظهران، بل

وكانا يبقيان داخل غرفة فيروتشو الجميلة التي قام بتجديدها بالكامل. لم يكن من المعتاد في تلك الأيام السفر للقيام بشهر العسل. وفي إحدى الأمسيات ظهر العروسان وهما يركبان دراجة فيروتشو، هي كانت جالسة خلفه وبإحدى أيديها تمسك بوسطه ورجلاها مضمومتان على يمين الدراجة؛ لأنه في تلك الفترة لم يكن معتاداً للسيدات أن ترتدي البناطيل ولن يمكنها كذلك امتطاء الفيسبا بالطريقة العادية وهي مرتدية التنورة. كان الحفاظ على التوازن في هذا الوضع صعباً، فكان عليه ألا يسرع حتى لا يقعا. وبعد بضعة أيام مرض فيروتشو مجدداً، وعادت زيارات الطبيب والحقن، لكنها لم تعد تؤثر فيه. ذبل عوده مرة أخرى، وفقد كثيراً من وزنه، مثلما كان في المستشفى المرة الأولى. وكانت أنجيلينا تعاونه بكل الحب، ولم تعد تبتسم ولا تخرج من المنزل. فقد كان يتلوى من الألم من ذلك المرض الغريب الذي لا يعرف أحد اسمه. كان يتألم في صمت في الأيام الأولى، لمرضه حتى لا تفزع أنجيلينا. كان يتصبب العرق بغزارة حتى أصبح من اللازم تبديل قميصه الصوفي أكثر من مرة في اليوم. لم تغادر أنجيلينا جانب السرير وكانت تنظر له في حنو وحب، لكن قلبها كان ينتفض رعباً من منظره. وفي اللحظات القليلة التي كان يرتاح فيها فيروتشو، كانت هي تذهب للغرفة المجاورة وتغرق منديلها بدموعها.. وبدأ جمالها في الذبول.

وحين لاحظ والداه أن حالته لا تتحسن، وأنه ما من شيء يمكن عمله، قاما برحلة حج إلى مزار السيدة العذراء بشيفيتا، لكن لم تظهر

عليه أي بوادر تحسن. وحين قرر الطبيب أن فيروتشو يجب أن يدخل المستشفى، رفض فيروتشو الذهاب. وفي أواخر أيامه فقد كل شعره، وكان من المؤلم رؤيته في تلك الحالة.. كان يدرك أن نهايته قريبة فأراد أن يموت في فراشه.

كان موت فيروتشو صدمة لإدواردو، وكانت أيام الحداد على موته معاناة وعذابًا شديداً، بل وإن جديه لم يعودا يسمحان له بالذهاب للعب في الساحة أو حتى الاستماع للراديو الذي كان يبث طوال الوقت الأغنيات والموسيقى الخفيفة. كان إدواردو شديد الإعجاب بفيروتشو منذ أن أخذه وراءه على دراجته البخارية، حتى إنه كان يريد عندما يكبر أن يصبح مثله في قوته وبشاشته والذهاب للتنزه في روما على ظهر دراجة حمراء نارية مثل دراجة فيروتشو.

وبعد تشييع الجنازة عادت أنجيلينا لبيت والديها في كولى سان مانيو لتكتشف أنها حامل؛ فقررت عندها أن تهاجر إلى أستراليا، حيث كان أخوها الأكبر مهاجراً منذ فترة طويلة وانقطعت عنهم أخباره. وبعد بضع سنوات ليست بكثيرة عادت لبلدتها مجدداً وفي يدها خاتم الزواج من أحد أبناء القرى المجاورة، كان إنسانًا صالحًا وأنجبت له طفلين. لقد تركت وفاة فيروتشو والقصة التي روتها له جدته أثرًا شديداً لدى إدواردو، حتى إنه ما عاد يفكر في شيء غير أنه سوف يصيبه الدور، سواء عاجلاً أم لاحقًا، خصوصًا أن بعض الأمراض الخبيثة التي لا يجرؤ أحد على النطق باسمها، غالبًا ما تأتي دون أن يشعر المرء بها.

وبينما كان يعود بذاكرته لأيام الطفولة البعيدة، سمع صوت رفرفة جناح خافتة صرفت انتباهه عن القراءة، فوجد أن حمامة قد حطت على شرفته وها هي تتمشى في جرأة أمامه وتتمايل، بينما تنقر هنا وهناك في الفراغات بين السور الطويل. كانت أشعة الشمس ما زالت تنعكس على صفحة نهر الدانوب الزرقاء التي كانت تلمع حين يمر الترام، ذلك الترام المبارك رقم ٢ الذي يعاود الظهور دائمًا في موعده بكل بدقة - أي كل ربع ساعة بالتمام، مطلقًا صريراً لعجلاته في هذه النقطة بالذات، حيث كان عليه أن يدور في نصف دائرة حتى يختفي خلف مبنى هيئة براءة الاختراعات ومبنى البرلمان. كانت الزهور الصفراء للشجرة الماغنولية الكبيرة تتساقط ببطء، حتى كونت طبقة منها في حوض الزهور الموجود أسفل الشجرة، بيغما تناثر بعض الزهور هنا وهناك بفعل النسيم الهادئ الذي كان يتوقف بين الحين والآخر، وتبددت في الحال صورة تلال بودا خلف الشبورة الكثيفة الآخذة في احتلال الأفق، راسمة بظلالها منظراً خياليًا جميلاً موحيًا بالغموض.

تذكر إدواردو أنه في ذات صباح من شهر أغسطس، ربما كان يوم النصف من أغسطس، كان قد شاهد منظراً نادراً من شرفة منزله، كان المنظر أقرب إلى لقطة سريعة، فبينما كان الترام رقم ٢ يمر، عبرت خلفه سفينة ضخمة تحمل اسم «أوروبا» وهي تشق ماء نهر الدانوب، في حين مرور ثلاث طائرات صغيرة تابعة لفرقة الاستعراضات الجوية في اندفاعها وهي تلعق صفحة الماء في جرأة، ثم تعود لترتفع في الجو من

تحت جسر الكاتيني، وهى ترسم خلفها خطوطًا ملونة على شكل العلم المجري مع مرور حافلة مكشوفة مليئة بالسائحين المبتهجين، كانت الحافلة مقبلة من ناحية شارع الأكاديمية متجهة نحو ساحة ألكسوث، لقد كان تزامن الأحداث غريبًا ودقيقًا. ولو كان إدواردو نجح في تصوير هذه اللحظة لطاف بها أرجاء العالم، ثم وانته مثل البرق صورتها في ذلك المساء وهى جالسة على المقعد الوثير بعينيها اللامعتين، لقد بدأت لتوها في البكاء المتواصل كما لو كان عليها في هذه اللحظة أن تكفر عن خطايا العالم كله. لقد حاول أن يؤجل هذا اللقاء بشتى الطرق مقدمًا مئات الاعتذارات والأسباب مختلقًا سببًا جديدًا في كل مرة، أما الآن، فها هى أمامه ترتدي روبًا وتبكي وساقاها عاريتان وهى في حالة لا تسمح لها بالتفكير في أي وضع كانت رجلاها. أما نهداها فكانا يدفعان بنسيج الروب الشفاف. كان منظرها مثيرًا جدًا، وإن كانت تبدو عليها البلاهة في الوقت نفسه؛ فتنازل إدواردو عن أمر تلك العلبة الحمراء التي بها الخطابات التي طالما كان يفكر بها، وإذ به يجتهد قدر استطاعته للتخفيف عنها في تلك الغرفة ذات اللون الأبيض الغامض والسريالي.

الفصل السادس عشر

بدا نهر الدانوب من الطائرة التي كانت تقترب من بودابست بين السحب الكثيفة المتحركة، كأنه أمعاء تتثنى بين مساحات الحقول المحروثة، أما المدينة التي كانت تنتظره والتي كان النهر يشقها إلى نصفين، فكان يزداد عشقها في قلبه يومًا بعد آخر.

تذكر إدواردو تلك الأمسية في المعهد الثقافي الإيطالي، وذلك المؤتمر حول مارسيلي وخرائط الجنرال وتذكر كلارا.

كان أكثر ما أثر فيه عند وصوله لبودابست للمرة الأولى وبعد سقوط حائط برلين، ليس جمال المدينة، بل كانت اللغة التي يتحدثها المجريون، كانت بالنسبة إليه لغة فريدة لها طابعها الخاص، فلم تكن تشبه أي لغة أخرى، ولم يتمكن من إيجاد طريقة يربط بها كلماتها مع لغة أخرى يعرفها. ففي الأيام الأولى لم يفهم إدواردو شيئًا مما يقوله الناس حوله. وحين اعتقد أنه فهم معنى إحدى الكلمات، اتضح له أنها لا صلة لها بالمعنى الذي في ذهنه؛ فتذكر طفولته حين كان يسمع بعض الكلمات المجرية التي كانت تقولها جدته، والتي بدت له كلغة أحد

الكواكب الأخرى. وبعد الإحباطات الأولى، قرر أن يدرسها وأن يتوغل بين قواعدها الصعبة المتشابكة.

ووجد أنه بينما يطلق الأوروبيون رسميًا اسم هونجاريا على هذه البلاد، فإن اسمها باللغة الأصلية للبلاد هو ماجياروسزاج – أي بلاد المجريين، فتذكر ما كتبه أحد كبار الكتاب المجريين والذي يعيش الآن في باريس، ففي الحين الذى يقوم فيه سكان البلد بتسمية البلد، فإن الحال هنا مختلفة وبالضبط هى عكس ذلك.

فاللغة المجرية مستمدة من الحضارة الفينيقية القديمة التي بنيت عليها ثقافتهم، بل وإنهم قاوموا دائمًا الاختلاط والثقافات الأخرى على مر العصور ومن هذه اللغات اللاتينية والألمانية والسلافية والتركية ولغات أخرى. ولكن ما كان حال اللغة الإيطالية؟ هل كان هناك تقارب مع الإيطالية؟ لكن اللغة الإيطالية بدت عاجزة عن إيجاد معانٍ مشتركة للكلمات، حتى حين تشابه النطق. وفي ذات يوم أخذ إدواردو يلعب بالكلمات وكتب مقالاً قصيرًا عن الموضوع.

لقد أراد المجريون تغيير اسم السلطة الروسية ليصبح السلطة الفرنسية، ولهم في ذلك أسبابهم التي يمكننا تفهمها، لأن الشر يطلقون عليه اسم «روسزول»، بل وإنهم يحتفلون سنويًا بذكرى خروج آخر جندي روسي من بودابست، وهو سبب يمكننا أن نتفهمه أيضًا.. لكن لماذا أطلقوا على المفتاح الإنجليزي اسم المفتاح الفرنسي؟ أو لماذا يطلقون على البطيخ اسم الشمام اليوناني؟

وعلى عكس ما سبق، فهم إدواردو تمامًا لماذا حين يريدون الإشارة إلى المرأة، كانوا يستخدمون كلمة عندما تنطقها كانت تدل على كمال إذلال الرجل المستعبد: نو "No"، أما إن أراد المرء أن يأخذ سيارته لورشة الميكانيكا فسيجد مكتوبًا على الورشة: "S.P.Q.R"، هل نحن في روما أم في بودابست؟ ولماذا «S.P.Q.R.» وما دخل ورشة ميكانيكا السيارات بمجلس الشعب الروماني (Senatus Populusque Romanus)؛ وبالسؤال عن التفسير قيل له، إن "S.P.Q.R." شعار ما زال يستخدم كثيرًا في روما، وإنه كان مكتوبًا في كل مكان.

وذهب إدواردو لزيارة السوق ولاحظ أنه حتى الله كانوا يطلقون عليه اسمًا غريبًا، بل وكانوا يسمونه حبة الجوز. إن تاريخ اللغة المجرية هو حقًا تاريخ طويل ولا محالة، وقد أخذت تلك اللغة طريقًا متفردًا عن باقي اللغات، وإن كان طريقًا غير مستقيم على مر العصور، لكنه لم يستطع أن يتخيل ما السبب الذي ربطوا بسببه بين الله وبين الجوز المكنون في قشرته، لكن كان هناك ما هو أسوأ من ذلك كله، لأن إدواردو سريعًا ما اكتشف أن في المجر مثلها مثل باقي دول وسط شرقي أوروبا التي زارها، يعتبر غير مستحب استخدام كلمة «منحنى»، خصوصًا حين يتحدث إلى النساء، على الرغم من كون هذا المصطلح هو إشارة أو دلالة على الطريق، سواء في المجر أو في أي مكان آخر.

كما لم يكن من اللائق أيضًا أن يقول في وجود أبناء البلد إنه يريد القهوة دون سكر؛ كانوا يسمون اللبن تيج (Tej)، أما الشاي فكان

اسمه تي (Tea)، والنبيذ كان اسمه (شيق) كانوا يطلقون عليه بور (Bor) إن كان نبيذًا أحمر، أما إن كان نبيذًا أبيض فله اسم أشد إثارة: فوروزبور (vorosbor)، (و هو ما يشبه سمعيًا بعض اللهجات الريفية الإيطالية حين يريد الرجل الإشارة إلى أنه على وشك أن يقذف المني).

وحين يسمع المرء كلمة «إيطال»، ويعتقد أنه أخيرًا اقترب من شيء يشبه اللغة الإيطالية، يكتشف أن هذه الكلمة لا دخل لها بإيطاليا لا من قريب ولا من بعيد؛ لأن «إيطال» بلغتهم تعني «مشروبًا». أما الدولة – أي إيطاليا– فكان اسمها أولاسزورسزاج (Olaszorszag)، والمفهوم منها أن فتاة عرجاء فقيرة اقتربت من إحدى القديسات. أما نبات القرع فكان اسمه توك (Tok).

وإن زادت سمرة البشرة يصبح الشخص ليسولني (lesulni)، أما من هو طويل القامة فهو ماجاس (magas)، يا إلهي، وأخيرًا بعض الكلمات اللاتينية والآدمية أو هي على الأقل شبه مفهومة حتى إن أطلقوا على الوحشية (brutalis)، وعلى المثالية (ideal)، وهناك قليل من الكلمات الأخرى أيضًا. أما إن أرادوا شرب نخب أحدهم، فكانوا يستخدمون كلمة لا يمكن نطقها ولم ينجح إدواردو في قولها قط. وأخيرا كلمة «idiota» – تعني في الإيطالية الأبله أو الأحمق – هي كلمة قديمة قدم اللغة اللاتينية، إلا أنه وحتى إن تغير معناها قليلاً فإنها بقيت شامخة على مر العصور، إلى يومنا هذا. ومثلها كذلك كلمة «Idraulico»، والتي

تداولها أولاً اليونانيون ثم الرومان. وفكر إدواردو في أن العالم ما هو إلا قرية صغيرة، حتى إن كل الناس في بودابست يذهبون كل يوم أحد إلى الـ «Stadion». كما أنه كان من اللازم وبكل صرامة أن يوضع لقب العائلة قبل اسم الشخص نفسه، وحين يريد المرء أن يملأ أي استمارة يطلب منه فيها بياناته الشخصية، كان عليه كذلك أن يكتب بها اسم والدته.

في مجمل الأمر، كان إدواردو يحسد الأسود الأربعة الموضوعة فوق جسر الكاتيني، وهو أشهر جسر ببودابست؛ لأنهم لم يكونوا قادرين على التعبير عن أنفسهم، لأنهم ليست لهم ألسنة. ترى ما المقصود من ذلك؟ لا أحد يدري، لكن المعروف هو أن الجسر من تصميم مهندس اسكتلندي والمعروف عن الاسكتلنديين أنهم بخلاء حتى في الكلام.

وإذا مرض المرء، وبالطبع آلام الأمراض واحدة في كل بلاد العالم، أما في بودابست فالمرض الوحيد الذي تستطيع نطقه هو الإنفلونزا؛ لأنه المصطلح نفسه. أما صاحب المرض التهاب اللوزتين، فتجد أن الآلام المصاحبة تزداد لتصيب حتى اللسان، حيث على المرء أن ينطق باسم المرض وهو «mandulagyulladas». فليحفظنا الإله حبة الجوز (طبقًا للغتهم) من كل سوء. وعلى ما يبدو ليس من الواجب هنا أن نتحدث عن التهاب الغشاء البلوري أو الالتهاب البريوني؛ فإدواردو لم يحاول حتى قراءة أسمائهما (hshartyagyulladas,melhartyagyulladas)، وبين هذه الأسماء قرر إدواردو البائس أنه إذا أتيح له اختيار مرض بين تلك الأمراض

مستحيلة النطق، ربما كان من الأسهل أن يصاب بـ«infarktus» – (نوبة قلبية)، أملاً في أن يمنحه أبونا الذي في السماوات الوقت الكافي لنطقها قبل أن يلفظ أنفاسه.

الفصل السابع عشر

في رحلة الطيران العائدة لروما، جلست بجواره فتاة وبدأت فوراً في قراءة كتاب، بل لم تكن تقرؤه حقًا، بل كانت تفتح الكتاب وتغلقه ثم تضمه بيديها وتقربه لصدرها. فنظر إليها إدواردو دون انتباه وهو يزيح عينيه من فوق منظر المهبط المبلل بعد المطر الغزير. لم تكن الفتاة جميلة، وكان شعرها قصيراً وترتدي نظارة طبية عدساتها سميكة جداً، وما أن بدأت محركات الطائرة في الدوران حتى لاحظ أن الفتاة شحب لونها.. وفي اللحظة استدارت الفتاة بوجهها تجاهه وبدا على وجهها أنها تستجديه في حياء. فقال لها: «هل هى المرة الأولى التي تركبين فيها الطائرة؟ لا بد أنها كذلك؟»، «نعم إنها المرة الأولى. فأنا ذاهبة لروما في منحة دراسية. ولم أذهب هناك قبل ذلك». فتذكر إدواردو المرة الأولى التى ركب فيها الطائرة، لقد كانت رحلة شارتر إلى لندن. كان شاباً صغيراً في ذاك الحين، وكانت الطائرة مليئة بالطلبة من الشباب الذين أشاعوا الهرج والمرج في الطائرة. وفي أثناء تلك الرحلة، مرت الطائرة بمطبات هوائية وبدأت تتراقص. وعلى الفور سادت بين الركاب حالة من السكون التام، وكانت بجانبه فتاة لم تبدُ عليها أي علامات قلق، بل بدت

له غير مهتمة بما يحدث، وكانت قد قالت له إنها ركبت الطائرة مرات كثيرة لأن والدها كان دبلوماسياً، وهي كانت تذهب كثيراً لزيارته في كل أرجاء العالم، لكن ما قالته الفتاة لم يمنحه أي نوع من الطمأنينة؛ فما لم يقع في مرات سابقة يمكن أن يقع الآن.. هذا ما كان يدور في ذهنه. لكن الفتاة نجحت بذكاء في أن تسري عنه وتنسيه ما كان يدور في خاطره. وها هو الآن يحاول أن يشجع الفتاة التي بجواره، بل وإنه نجح كذلك في أن يجعلها تبتسم. ولاحظ حين ابتسمت أن أسنانها ناصعة البياض. وحين شرعت المضيفات في شرح إجراءات الأمن والسلامة، سألته إن كان يلزم أن تضيق حزام الأمان على خصرها أكثر. كان أمام إدواردو كراسة يدون فيها ملاحظاته، فأتته فكرة وبدأ في الكتابة في عجلة. كان إدواردو معتاداً على هذا الأمر، فقد كانت الأفكار والوحي تأتياه دائمًا في اللحظات غير المناسبة، وكان يسمي لحظات الوحي بلحظات الاستنارة، وكان دائمًا ما يدون الأفكار التي تأتيه فيها، ثم يستخدمها في كتابة مقالاته، كان يكتب ملاحظاته دون أن يفكر فيها أو يعيد قراءتها. وظهر الفضول على الفتاة، ربما كان ما تفعله هو لمجرد الانشغال عن خوفها.. فسألته بخجل عن الذي يكتبه، وعمّا إذا كان مؤلفًا أو كاتبًا. فقال لها إنه صحفي، لكنه الآن يعيد كتابة قصة كان قد كتبها في السابق لأنها انمحت بالكامل من ذاكرة الكمبيوتر؛ ثم قال إنه وإن كان يعيد كتابتها فإنه يعلم أنه لن يتمكن من الإحساس بالقصة وكتابتها كما كانت بالضبط، وأعلمها بأنها قصة تدور حول رحلة الإلهة

«أوروبا»، وأن بطلة الرواية كانت فتاة تبحث عن جدها الذي هرب من المجر في فترة ثورة ٥٦.

ربما كانت مارتا تعرفها.. كان اسم رفيقة رحلته هو مارتا، لقد كانت تعرف تلك الفتاة وقد سبق لها أن تقابلت بها في مركز حفظ المستندات. أما مارتا فكانت هى الأخرى ذاهبة لروما لعمل بحث عن ثورة ٥٦، لأن مشروع تخرجها في قسم التاريخ المعاصر كان يدور حول عناصر ثورة ٥٦، وكان يعاونها في الكتابة أحد أساتذة قسم التاريخ وآخر من قسم المسرح. كان عليها أن تتقابل مع بعض المجريين الذين هربوا للخارج بعد ٥٦، وأن تدون شهاداتهم ثم أن تبدي رأيها فيما قالوه. كانت الفكرة الأصلية هى تكوين أرشيف كامل لكل مكونات الثورة وعناصرها، وكانت تحمل معها لهذا الغرض فهرسًا طويلاً من الأسماء ومن بينهم كذلك كثير من الإيطاليين الذين عاصروا الثورة خصوصًا الإيطاليين الذين عاونوا المجريين. كان من بين هذه الأسماء كثير من الصحفيين والمصورين. ورويداً زال الشعور بالحرج وامتدت جسور الألفة بين رفيقي الرحلة، حتى أخذت تروى له مارتا عن بعض فصول وتفاصيل حياتها الشخصية، والتى اعترفت بأنها ليست أقل شجنا من قصص الثوريين.

كان والداها مطلقين، والدها كان يمتلك مزرعة خيول بالقرب من كيسكيميث؛ وتعرف على فتاة شابة كانت رفيقة مارتا في المدرسة. فمنذ أن دخلت أم مارتا المستشفى للعلاج من الاكتئاب، كانت مارتا ودورا

صديقتين تلازم كل منها الأخرى وتنامان في الفراش نفسه وتمضيان كل الوقت معًا، وتتبادلان الأسرار في الغرفة نفسها التي كانت نافذتها تطل على البستان المقابل لإسطبل الخيول. وفي إحدى الليالي تأخر الأب في البستان ليدخن وهو جالس على شرفة البهو، وبينما كانت مارتا نائمة، لحقت دورا به لتتجاذب معه أطراف الحديث عن الخيول والسباق. فقد تعلمت الفتاتان ركوب الخيل معًا تحت رعاية والد مارتا في ليالي الصيف. وكانت دورا شديدة الإعجاب بوالد مارتا، وكانت ترى أنه رجل ساحر ولا تبدو عليه سنه على الإطلاق. وعند نهاية حديثهما تتمنى لها ليلة سعيدة وذهب ليستحم كما كانت عادته كل ليلة قبل أن ينام. أما دورا التي ربما لأنها شعرت بالاستثارة فقد خلعت عنها كل ثيابها ولحقت به تحت الدش، وحاول هو أن يبعدها عنه بشتى الطرق، لكنه في النهاية لم يقدر. أما دورا فقد مارست الجنس مسبقًا عدة مرات مع أحد رفقاء الدراسة، بل والأكثر من ذلك فقد اعتادت عامًا كاملاً على الهروب من المدرسة والذهاب إلى منزل صديقها حين يكون والداه في العمل، لتمضي معه ساعات طويلة في سرير والديه الكبير، بل وإنها حملت منه سفاحًا وأرادت أن تحتفظ بالجنين، لكنه رفض، وهكذا انتهت العلاقة بينهما، أما هي فقد ذهبت لتجهض نفسها في خفية عن والديها، فذهبت لطبيب في مدينة مجاورة لم يكن يمانع أن يجهض الفتيات. أما الآن فقد صادق رفيقها السابق فتاة أخرى وانتقلا معًا للعيش في بودابست حتى يمكنه إكمال دراسته الجامعية. أما رفيقته فكانت تعد لرسالة علمية حول

سيلفيو بيليكو وعصر النهضة، كما أنها قد ذهبت هى الأخرى إلى روما وتورينو في منحة دراسية.

وبين الحين والآخر، كانت تعود مارتا لمزرعة والدها، وكان يساعدها في دراسة الرياضيات وعمل فروضها المدرسية. وكانت تذهب يوم الأحد برفقة والدها إلى المستشفى لزيارة أمها المريضة. كانت في المرات الأولى تنتظر بفارغ الصبر أن تزور والدتها مجدداً، وكانت تأمل في أن تعود سريعًا للمنزل ولحياتهم العادية على الرغم من عراك أمها وأبيها المتكرر، وبأن الحياة ستعود لسابق عهدها، لكن حالة الأم ازدادت سوءًا وأصبح مؤلمًا لمارتا أن ترى أمها في تلك الحالة. وأخذت الزيارات في التناقص إلى أن حدثت الفاجعة.. لقد ألقت الأم بنفسها من نافذة الطابق الثالث بالمستشفى وماتت، فقد كانت تعيش وتأنيب الضمير يمزق قلبها.

أما الآن فقد تزوج والدها أعز صديقاتها التي تنتظر منه طفلاً، ولم تستطع مارتا أن تتخيل أنها بينما تنام في غرفتها، تنام دورا في السرير الكبير مع أبيها.. ذاك السرير الذي طالما احتمت به حين كانت تراودها أحلام مزعجة، فكانت تحتضنها أمها وتنام مارتا فيه تحت حماية أمها وأبيها، إلا أن مارتا لم تستطع أن تكره دورا، لكنها اكتفت بأن تتجاهلها وألا تلتقيها قدر الإمكان؛ فقررت عدم العودة للمنزل ثانيًا، إلا في الحالات الضرورية فقط ولقدر محدود من الساعات. فكانت تعود دائمًا لبودابست التي كانت تعيش فيها في شقة واحدة برفقة إحدى طالبات قسم تاريخ الفن.

ومرت أمامهما اثنتان من المضيفات وهما يجران عربة الطعام. ففي الرحلات المنخفضة التكاليف، كانت كل الخدمات التي يقدمونها على الطائرة من مأكل أو مشرب مدفوعة الأجر، فسألها إدواردو إن كانت تسمح له بأن يبتاعها شيئًا، فرفضت في بادئ الأمر، وبعد أن أعادت التفكير طلبت منه أن يبتاعها الشاي بالليمون. بينما كانت مارتا تحدثه كانت كثيراً ما تسكت من تلقاء نفسها لتحدق بظهر المقعد الذي أمامها. فما كان من إدواردو إلا أنه أحس بجياشة مشاعرها وأن أدار وجهه إلى النافذة كما لو كان لم يلحظ حالتها، مدعيا أنه ينظر هو الآخر إلى السحاب العابر من نافذة الطائرة؛ ثم تعاود مارتا الحديث على نحو محموم حتى إنه في بعض الأحيان لم يكن قادراً على متابعة ما تقوله. ومن بين ما قالته له، إن لها صديقًا يكتب الشعر والروايات، وأنه كان يدرس في كلية الآداب وإنه قد نشر كتابه الأول أيضًا، وإنهم قد استقبلوه مراراً في كثير من الجرائد لإقامة الأحاديث معه، بل إنهم دعوه كذلك للتحدث في الإذاعة. أما الآن فهو الآخر يعمل في أرشيف مركز معلومات الثورة. كان كل أشعاره عن الحب وقالت لإدواردو إنه كان يسعدها أن تعرفه به، وإن لم يكن الشاب يتحدث الإيطالية، لكنه كان يتحدث الإنجليزية والألمانية. وقالت مارتا إنها تحب أشعاره كثيراً لأنها وإن كانت بسيطة فإنها عميقة. أما في روما فكان في انتظار مارتا شاب صقلي كانت قد تعرفت عليه في بودابست في أثناء مهرجان

سيجد، وقالت أيضًا لإدواردو إنها في روما سوف تقيم في الأكاديمية المجرية هناك، وإن آخر كتاب قرأته كان رواية من تأليف كاتبة تدعى ماجدة سزابو، وكان اسم الرواية «الباب»، وتدور حول علاقة كاتبة مع الخادمة التي تعاونها في القيام بأمور المنزل، كانت علاقة غاية في الجمال، بين الكاتبة وخادمتها إيميرنك، وهو اسم جدتها التي للأسف رحلت عن عالمنا، أما الخادمة إيميرنك فكانت هى بطلة القصة الحقيقية.

إن رغب إدواردو، في رحلة عودته من روما، لصاحبته عن رضا، بل وأخذته إلى كيسكيميث ليزورا المدينة. وحتى صديقتها التى كانت تدرس تاريخ الفن، والتي كانت موجودة في إيطاليا لبضعة أيام، كانت هى الأخرى متيمة بأحد فنيي الإضاءة في إحدى الفرق التي زارت بودابست لإقامة بعض العروض بها وزارت معه أرجاء إيطاليا؛ وكتبت لها رسالات مطولة تحكي لها فيها عن المدن التي زارتها، بل وعن علاقتها بهذا الشاب الإيطالي. كانت فتاة شديدة التحرر. فكر إدواردو: «يا له من عالم صغير».

كانت لها صديقة أخرى تعيش في الشقة المجاورة لها في بودابست، وتقطن بالدور نفسه من المبنى. وكانت تعد لرسالة بحثية حول الأدب الصقلي. واعترفت له مارتا بأنها هى الأخرى كانت تجوب البلد وفي يدها جهاز تسجيل؛ لجمع شهادة من بقى على قيد الحياة من أولئك الذين كانوا في الصفوف الأولى على الدشم في فترة الثورة، وأن شهادتهم في بعض الأحيان كانت مؤثرة جداً. لقد شاهدت في مركز

الثورة عرضًا للصور الضوئية تبين عمليات الإعدام الوحشي التي قامت بها الجموع الغاضبة وكانت صورًا مروعة أثرت فيها بشكل كبير. أما إدواردو فلم يكن يريد أن يتحدث عن الثورة في تلك اللحظة وحاول المراوغة، واعترف لها بأنه إن كان أحدهم سأله في تلك الفترة عما هو أكثر شيء يحب القيام به لتمضية وقت فراغه؛ لشعر بالخجل الشديد ولربما أحمر وجهه عند الإجابة. لقد أزاح جانبًا كل تلك الكتب التي كانت مرصوصة فوق الأرفف كنصب تذكاري مهيب لا يمس، أما القليل الذي كان يملكه من أدوات رياضية فكان موضوعًا بغير نظام في خزانة، أما الملابس فهي الأخرى كانت ملقاة في أكوام داخل الدواليب. كان اهتمامه الوحيد هو الإنترنت، وكان يستخدمه فقط لإرسال المقالات وقراءة الجرائد التي لم يكن يستطيع الحصول عليها في الأماكن النائية التي كان يرتادها من العالم. أما الآن وبعد أن طاله الهوس من المرض، بل وتملك بالكامل عقله، لم يكن يمضي عليه يوم إلا وكان يستقطع بعض الوقت ليمضيه أمام الكمبيوتر، بل وللحق، كان لا ينام ولا حتى في الليل، كان يقوم من نومه فجأة ليشغل هذا الجهاز الذي كان يجذبه أكثر من أي أمر آخر. لقد خلق حافظة للملفات أصبح حجمها مهولاً من قدر ما تحتوي، وكل يوم كانت تزداد ثراء بالمعلومات نسبة لما كان يراوده من مخاوف الآلام الجسدية، لكن هل كان حقًا جسده هو ما يؤرقه؟ لأنه وبناء عن نظريته التي وضعها بنفسه، فإن كل الأمور هي في الأصل مرجوعة للعقل، لذا فقد ركز كل أبحاثه منذ فترة على السلوكيات العقلية.

الفصل الثامن عشر

ذهب إدواردو للسير بطول النهر حتى ساحة روزفلت.. كان قصر الجريشام ما زال تحت الترميم، إلا أن واجهة القصر المقابلة لجسر السلاسل، بدت في كامل أبهتها بأسلوب المعمار ليبرتي، كان يمكن رؤيته من بين فواصل الألواح الخشبية التي وضعت لحماية المارة بجوار أعمال الترميم. كان صوت كعوب أحذية المارة تصدر قعقعة مدوية فوق الألواح الخشبية، تنتشر في كل أرجاء المكان الساكن بسبب الحر والرطوبة الشديدة، فبدت المدينة في هذا اليوم كما لو أن أهلها هجروها. فتوقف إدواردو في وسط الجسر في أثناء سيره، وإذ به يرى تمثالاً كبيراً لسيشيني يعلو فوق بساط الحديقة الأخضر. كانت حالة البساط الأخضر تدل على أنهم يولون اهتمامًا بتنسيق هذه الحديقة، أما سيشيني فقد جعل المبنى المهيب لأكاديمية العلوم خلف كتفيه، فتذكر إدواردو أنه كان قد قرأ في أحد المصادر، أن المجر قد أهدت إلى العالم أحد عشر عالمًا حصلوا على جائزة نوبل في العلوم.

كان الجسر يظهر في خلفية التمثال، وعبر الجسر، يظهر من بين الأرشات الحديدية، تل بودا القابع في إحدى النقاط الأكثر جمالاً على نهر الدانوب.

كان أشد ما يشده إلى هذا الجسر، ليس زهاء جماله، خصوصًا حين تضاء كل أنواره في الليل، بل أمر الأسود الأربعة التي يزدان بها الجسر، حيث كانت أفواهها تخلو من الألسنة. كان إدواردو قد لاحظ الأمر على الفور في المرة الأولى التى مر بها بذلك الجسر. استكمل إدواردو السير المرهق حتى وصل إلى منزله، ثم توقف لحظة عند ناصية شارع «أراني»، إذ كان متردداً بين أن يذهب مباشرة إلى المنزل أم يتوقف ليأكل البيتزا في مطعم «التفاحة الذهبية» الذي كان من المطاعم النادرة التي تطهو البيتزا على الحطب، أو على الأقل هذا ما قاله له أحد أصدقائه الذي يعيش بالمدينة منذ فترة طويلة زار خلالها كل المطاعم الإيطالية، وبينما كان يسير عاودته صورتها بقوة.

في كثير من الأحيان، تخون العينان الشفاه، كما لو كانت الابتسامة الدافينشية التي ترسمها على وجهها تفتعلها للمجاملة أكثر من كونها نابعة من القلب، تجدها تتباين مع رقة نظراتها! فهل كانت تلك النظرة هي المرآة الحقيقية لروحها، أم أن التعارض الظاهري بين ما تشعر به وما تحاول إظهاره يخفي لنا مفاجآت أخرى؟ وأنهك إدواردو نفسه في محاولة إيجاد الإجابة، بل وكان يطرح على نفسه السؤال ذاته، بينما تداعب أصابعه تلك البشرة المخملية التي تشع شذى رقيقًا وعطراً ملموسًا يحثك على مداعبته.

«أنا ربما أمتلكك حقًا، فقط وأنت نائمة»، لقد اعترف لها بالأمر في إحدى المرات صراحة، فلم يكن قادراً على فهم ما وراء تلك السكينة التي تبدو على وجهها المستند على الوسادة في خفة، أو أن هذا الجسد الأيقوني العاري الذي شارف في جماله أن يكون دليلاً على طهارة وبراءة قدسية، كان يخفي وراء حيويته وتضارب إشاراتها الجسدية مع السكينة التي تبدو على وجهها هذا الحجم من الاضطرابات الداخلية المستعرة.

وفي إحدى الليالي دار في عقل إدواردو الذي تبدل وعيه بفعل الدخول إلى عالم الأحلام، دار أمامه مشهد مزدحم بالرجال والنساء الذين يدخلون ويغادرون منزلها، وقد انتقل المنزل إلى وسط الغابة، رجال قِباح وجِمال، رجال من كل لون، يعتلونها دون حياء. أما هي فكانت لا تبالي بمن منهم جميل أو قبيح. وكانت تحاول أن توحي لهم جميعًا أنها تستمتع معهم جميعًا في نهم، نهم بلا حدود، إذ إن الشيء الوحيد الذي كان يهمها هو المال، كانت تريد أن تجمع كثيراً منه، وكانت مستعدة لأن تفعل أي شيء من أجله، ومن أجل مزيد منه. كانت تريد أن تصبح شديدة الثراء وأن تنهش العالم نهشًا، ولهذا كانت تدرس بعناية كيف تعرض نفسها لجيرانها في السكن وكيف يمكنها الإيقاع بالناس في شراكها، حتى أولئك الذين تقابلهم في الشارع وكيفية الإيقاع بهم من أولى نظراتها الشاردة، فهي لم تعد تبحث في الرجال عن أي من محاسن الأخلاق؛ لأنها كانت في رعب من أن يطالها الفقر والشيخوخة؛

لذلك ما كانت تحتفظ بأي من أسلحة شبابها الأخاذ لنفسها، بل كانت تركن إليها جميعًا كمن يركن إليها في مبارزة عدو فتاك، فاستيقظ إدواردو في قلب الليل وأضاء أنوار الغرفة وجلس على سريره وعيناه مفتوحتان عن آخرهما في مواجهة مرآة الدولاب.

كانت هناك في تلك الأمسية بالمعرض القومي تنظر وتمعن النظر ثانيًا إلى تلك اللوحة في حركات أقرب لأن تكون غير طبيعية، كما لو أنها وقعت تحت تأثير قوة غير معروفة تلفظها وتعزلها؛ فعادت لذاكرة إدواردو كلمات أحد المؤلفين - كان يعتقد أنها ربما كلمات جوتة - الذي قال: «لا يوجد طريق أكثر أمانًا للهرب من العالم سوى الفن، كما أن الرابط الأقوى بالعالم هو الفن أيضًا».

كانت جيرتي من ديبريسين، من عائلة كاثوليكية كانت تعيش مهمشة، أو هكذا قالت له، الطريقة نفسها التي كان عليها اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، في تلك المدينة التي طالما كانت في تلك الفترة بمثابة النقطة الحصينة للبروتستانتينية، للدرجة التي أطلقوا فيها على هذه المدينة لقب «روما الكالفينية»، وقد شغفت بالفن منذ طفولتها، بل وإنها فتنت، واستحوذ عليها تمامًا، عندما زارت متحف المدينة وشاهدت اللوحات الثلاث لمونكاكسي، وهى الآن تعرف كل شيء عن حياة هذا الفنان المبدع، كما قد قرأت أنه فى إحدى الحفلات التى أقيمت على شرفه بالمقهى الكبير ببودابست، تم اعتباره أحد كبار فناني بلاد المجر ومساواته إلى نفس مقام فرانس ليسزت، بل وإن لوحته التي يطلق عليها

«الجولجوثة»، قد امتدحها موباسان، بل وقام بذكر اسمه في إحدى رواياته التي يطلق عليها (الصديق الجميل). أما في عام ١٨٨٦ فقد قام مونكاكسي وبعد كثير من الدراسات التحضيرية، برسم لوحة «وفاة موتسارت»، وتم عرض اللوحة في فصل الربيع بمصاحبة الموسيقى، حيث تم تخصيص مكان للأوركسترا خلف اللوحة وقامت بعزف القداس الجنائزي لموتسارت، إلا أن اللوحة لم تحظ بنجاح سابقاتها نفسه ولم يعجب النقاد، أما احتفالية فرانس ليسزت في باريس، فكانت حدثًا اجتماعيًا كبيرًا في بدايات العام نفسه، وقد قامت بالإعداد له زوجة الفنان كوتشيلي مونكاكسي؛ ثم وصفت كوتشيلي حفل الاستقبال الذى أعدته على شرف الملحن في ٢٢ مارس، في إحدى الرسائل التي كتبتها لأهله، وهى تذكرهم بأن الزوج تم استقباله بحفاوة بالغة وحماس لا يوصف، وفي هذه المناسبة تعانق الفنانان بمحبة كبيرة. وتستكمل جيرتي سرد الرواية كما لو كانت تقرؤها من كتاب: «لقد كان الزوجان مونكاكسي حاضرين في أول عرض قدمه ليسزت لقداس عيد الفصح بكنيسة القديس أوستاكيو في الخامس والعشرين من مارس. وبعد أسابيع قليلة – أي بعد أن قدم آخر حفلاته الموسيقية الكبيرة في التاسع عشر من يوليو ببروكسل – توفي ليسزت في فيمير. في ذلك الصيف، قام أحد المعجبين بمونكاكسي بالإعداد واستقبال زيارة بعض جامعي التحف الأمريكيين لمكتبه، للتعاون على عمل معرض لصور السيد المسيح بالولايات المتحدة. وفي شهر نوفمبر وبعد يومين فقط من وصوله لأمريكا، افتتح مونكاكسي معرض السيد المسيح أمام بيلاطس، فكانت

اللوحة سبباً لذياع صيته وانتشار شهرته، كما كان من بين الشخصيات التي استقبلته السيد جوزيف بوليتزر مالك إحدى الجرائد المجرية الأصل والذي أعطى اسمه لاحقًا للجائزة المعروفة، كما.كان من بين الحضور عضو مجلس الشيوخ السيد س.م. ديبوي، وأيضًا الرئيس الأمريكي جروفر كليفلاند الذي قدم من واشنطن، وفي العام نفسه قام الفنان برسم لوحة لفرانس ليسزت في كولباش وعمل كثيراً على دراسة تركيبة الألوان لحساب متحف كونستيستوريسكس.

ثم في عام ١٨٨٧، بدأ مونكاكسى في العمل على رسم لوحة للشاعر الراحل جون ميلتون الذي ما زال يحظى بشعبية كبيرة؛ وإن كان بعد مرور أكثر من عشر سنوات على الاحتفال بالمئوية الثانية لوفاته، ثم انتبهت جيرتي لطريقتها في الحديث ولاحظت أنها أقرب ما تكون إلى إلقاء محاضرة على إدواردو فاعتذرت له، إلا أن ميلتون قد جذب انتباه إدواردو، لأنه بينما كان في السابق يكتب مقالاً عن معزوفات السوناتا الإيطالية تطرق خلالها إلى قراءة «الجنة المفقودة»، كما اعترفت له جيرتي بأنها كانت تمضي أياماً كاملة في متحف ديري، للتأمل وتدرس كل نقاط الثلاثية المشهورة: المسيح أمام بيلاطس، وها هوذا الإنسان والجولجثة (Golgotha).

لاحظ إدواردو أنها حين كانت تتكلم عن مونكاكسي؛ كان يبدو أنها ترتفع عن الأرض في عشق أقرب لأن يكون عبادة إلهية. وقد نجحت في

جمع قدر كبير من الكتب والشروحات التي تتحدث عنه، بل وكانت تشكل الجزء الأهم في مكتبتها.

قاطع إدواردو حديثها ربما بطريقة غير مناسبة، فقد كان يفكر في مكتبته الشخصية، ولم يكن قادرًا على أن يتذكر من القائل "إن المكتبة هى نوع من أنواع المعامل السحرية" ففي الحقيقة ربما يكون قد سمع هذا التعبير من شخص كان يبدو كأنه دائرة معارف على قدمين، لقد كان يوحي لك بأنه يعرف كل شيء، بل ويشعرك بأنه قادر على مجابهة كل الموضوعات دون أن يقوم بأي مجهود يذكر. ومن سوء حظ إدواردو فقد أصبح هو نفسه شخصاً كثير الاقتباس في حديثه، حيث كان يزج دائماً بأحد الأقوال المشهورة بين كل جملتين يقولهما، ما جعله مقتبساً محترفًا، كما لو أنه كان يريد أن يجد لمعتقداته سندًا أدبيًا من كبار الأدباء والمفكرين. «الغرفة التي ليس بها كتب - كما قال تشيتشروني، هى مثل جسد ليس فيه روح»، لكن كل أركان منزله كانت بالفعل تفيض بما بها من كتب، سواء في الممرات أو غرف النوم، بل حتى في الحمام. ففي كل جانب أرفف محملة بما يزيد على طاقتها وأكوام مكدسة وقصصات ومقتطفات، جرائد ومجلات. شيء لم يرَه من قبل سوى في منزل شاعرة نمساوية عجوز، كان قد ذهب لإجراء حديث صحفي معها في فيينا.

الفصل التاسع عشر

تأثر إدواردو جداً بمعرض الصور الذي شاهده بالمعهد الثقافي الإيطالي، حتى إنه قرر أن يذهب بنفسه للبحث عن أماكن التقاط تلك الصور على الحدود مع النمسا والمكان الذي عبر منه هذان الزوجان الشابان المجرى المائي. فركب سيارته في الصباح الباكر وقطع مسافة طويلة على الطريق السريع، وترك الطريق السريع الدولي حين اقترب من الحدود الدولية، كان المنفذ الذي غادر منه يحمل اسم إحدى صديقاته الكاتبات التي عاشت لفترة طويلة بروما، والتي كانت في طفولتها إحدى سجينات المستعمرات النازية. ودخل إدواردو إلى شارع فرعي، وفي أحد الحقول المجاورة للطريق كان هناك شابان ورجل عجوز يرتدي قبعة وكوفية رمادية اللون يحرقون فضلات الحقل، وعلى مسافة ليست بعيدة بيت منخفض الارتفاع، حوائطه من الطين والبوص سقفه مغطى بالقرميد الأسود. وفي الحقل المجاور كانت خراف ثلاثة ترعى بفروها الصوفي الأبيض، يتبعها حمل صغير نحيف، تقتات على الأعشاب المتناثرة، وعلى مسافة قريبة رأى حصانين يظهر عليهما الإجهاد وقد تركا وحدهما.

وكان يقبع بجوار المنزل مستودع للقش بلا حوائط، مكون من أربعة أعمدة من الطوب وسقف من الزنك.. وكانت بالات القش متراصة بعناية.

وعلى مسافة ليست بعيدة، تجمعت مياه الأمطار في شكل بحيرة صناعية صغيرة.. وهناك كان طيور السمان. وفي الفناء كان بعض الدجاجات ينقر الأرض.. ولاكتمال المشهد ظهرت سيدة عجوز أمام الباب ترتدي تنورة طويلة مزدانة برسم الأزهار والورود بما يشبه المئزر، ويغطي شعرها غطاء شعر ملون .. كانت عيناها المشرقتان شديدتي السواد، ونظرت إليه بارتياب وهمهمت ببعض الكلمات، كانت تعلم أنه لن يفهم ما قالت لأنه من المؤكد الغريب عن المكان لا يعرف لهجتهم، وفي الوقت ذاته لم يكن بمستطاع إدواردو أن يقول لها إنه فقد طريقه، بينما كان يطارد ذلك الحلم المستحيل، لكن ها هو يقترب من الشابين اللذين كانا يحرقان فضلات الحقل ويسألهما إن كانا يتحدثان الإنجليزية. وفوجيء إدواردو برد الصبى حين قال إنه كان يدرس الإنجليزية في المدرسة وإن كان لا يستطيع التحدث بها، لأنه لم يجد من يمارسها معه، ثم نطق بعضَ الكلمات بالإيطالية وقال له إن أخته تتحدث الإيطالية بطلاقة؛ لأنها كانت مخطوبة لشاب إيطالي وكانا يذهبان معًا في كل صيف للعمل بإيطاليا في «يزولو».

وإنها موجودة الآن بالمنزل، وإن أراد أن يقابلها يمكنه أن يقوده إليها، فأخذ دراجة متهالكة كانت مسنودة على جانب الحظيرة وقادها بمهارة معطيًا إشارة له بأن يتبعه، كان متأكدًا من أن أخته ستتمكن من

مساعدة هذا الغريب. كان يركب الدراجة بمهارة على هذه الطرقات غير المعبدة، متفادي الحصى والنقر وبرك المياه. عندما وصلا لمنزل الصبي، كانت تنتشر في الأجواء من إحدى النوافذ أصداء أغنية تعرف عليها إدواردو في الحال. كانت أغنية لفريق ألبو، تتحدث عن فيينا وعن المجر وعن قطار يمضي؛ فتذكر إدواردو رحلته الطويلة بالسيارة إلى فيينا مع اثنين من رفقاء الجامعة وأنهم لم يقوموا طوال الرحلة بشيء آخر سوى الاستماع لهذه الاغنية، لأن أحد رفقائه كان مغرمًا بفتاة مجرية هربت إلى فيينا وكانت تلعب بأحد فرق كرة اليد هناك. ونادى الصبي على أخته وهو يصيح من النافذة التي كانت تخرج منها الموسيقى؛ فطلت من النافذة فتاة رائعة الجمال وإن كان يعلو رأسها بكرات تصفيف الشعر. وكانت عيناها الخضراوان الواسعتان تزين وجهها، وتعبيرات وجهها مركبة لا يسهل فهمها وإن بدت كمزيج بين السذاجة والوقاحة، كما لو كانت قد كبرت قبل أوانها.. كانت تدرس الإيطالية دون مدرس، وكان كل ما تستعين به هو كلمات الأغاني التي تستمع إليها والخطابات التي يكتبها لها خطيبها. كانت حجرة الطعام تمتلئ بصور ملصوقة فوق المرآة، وتعرف إدواردو من بينها على إحدى اللوحات التي كانت في معرض المعهد الثقافي الإيطالي.

فقد كانت الصور الكثيرة المتوالية المعروضة تنتهي ببعض تلك الصور التي انطبعت في ذاكرة إدواردو. كانت إحدى الصور لعروسين شابين وهما يتعانقان بعد أن عبرا أحد مجاري المياه.. كانا يتعانقان في

سعادة لأنهما أصبحا أخيراً حرَّين، وبجوارهما مهد من الخيزران به طفل لم تتجاوز سنُّه إلا بعض الأشهر. وفي آخر تلك الصور اللحظية، ظهرت هذه العروس الأم الشابة وقد كشفت عن نهدها لتطعم رضيعتها. وقد توقف طويلا المذيع في أحد التحقيقات الصحفية التى شاهدها إدواردو بنشرة الأخبار المجرية، عند هذه الصورة، مركزاً الأضواء على وجه الأم الشابة وعلى طفلتها، ثم على وجه الأب، ذاك الشاب الأشقر الضخم الذي بدا سعيداً في آخر صورة؛ ثم عادت كاميرا التصوير للخلف ببطء، كما لو كانت تقوم برحلة عودة. وفي إحدى هذه الصور بدت الزوجة الشابة وهي تضع حزاماً من الجلد على كتفها وقد ثبتت فيه المهد والطفل في داخله، وهي واقفة على حرف المياه كما لو كانت لاعبة أكروبات وتسير ببطء على فرع خشبي يربط بين شاطئي المجري المائي، بينما يداها متعلقتان بكابل من الفولاذ مشدود بين شجرتين على جوانب المجري المائي على ارتفاع قامة الإنسان، إلا أن ارتفاع الكابل بدا عالياً جداً بالنسبة إلى حجم جسدها. كان من السهل التكهن بأن تلك كانت اللحظة الأكثر صعوبة في عملية العبور، لأن السيدة الشابة بدت خائرة القوى، بل وعند نقطة معينة، لم تعد قادرة على التقدم لأكثر من ذلك، لكنها لم تكن لتنظر إلى الوراء. وفي صورة أخرى، أخذها المصور من بعيد لأنه كان على الناحية الأخرى من المجرى المائي يستعد لعبورهما. ظهر أحد الجنود ويبدو أنه من أفراد حرس الحدود وقد تعاطف مع الثوريين، فتم تصويره بينما يخلع الحزام الجلدي من بنطاله، ثم يمده للأم الشابة.

كانت هذه هى قصة هذه العائلة الصغيرة التي أراد أن يرويها من بدايتها إلى نهايتها أو ربما من النهاية إلى البداية، لكن أين كانا حين عبرا الماء؟ ترى أين ذهبا؟ وماذا حدث لتلك الرضيعة التي قد يناهز عمرها الخمسين الآن؟

ربما كان على إدواردو أن يبدأ أولاً بالمصور الذي أخذ هذه الصور اللحظية؛ لأنه مؤكد أنه يعرفهم، أو ربما تبادل الأسماء، أو لربما يكون أعانهم، أو أعطاهم عنوانه ليحصلوا في أحد الأيام على هذه الصور. كان من المؤكد أيضًا أن يعرف المصور أين هى بالضبط النقطة التي عبروا منها المجري المائي والتي التقط فيها هذه الصور، بل وربما استطاع إدواردو أن يتواصل مع هذا الجندي الكريم الخلق الذي أهداها حزام بنطاله. وفي صورة أخرى ظهر فلاح من المؤكد أنه ساعد هذه الأسرة الجديدة، لكنه لم يبدُ بوصفه شخصًا يحاول الهرب مثلهم. وبالفعل ففي تلك الصورة التي أخذت للزوجين الشابين اللذين حصلا أخيرًا على حريتهما، ومن ثم أصبح مؤكدًا أنهما الآن على الأراضي النمساوية، نجد أن العجوز لم يظهر في الصورة وهذا يعني بالطبع أنه أحد سكان هذه المنطقة.

وعرض إدواردو على الفتاة بعض الصور التي التقطت لعملية العبور، وتعرفت على ذلك الفلاح الذي كان أحد جيران جدها ويسكن في مزرعة قريبة من المجرى المائي الذي يظهر في الصور. فصاحبته الفتاة بنفسها مغتنمة الفرصة للتحدث قليلاً بالإيطالية. لقد أصبح الرجل

طاعنًا في السن، وفي شبابه قد ساعد كثيراً من اللاجئين في الفرار، لكنه يتذكر جيداً هذين الزوجين الشابين كما كان يتذكر جيداً ذاك الجندي الذي خلع حزام بنطاله حتى تتمكن الأم من ربط الطفل به وتفادي سقوطه في الماء. لقد رحل الزوجان الشابان إلى سويسرا. أما الطفلة فأكملت دراستها في لوجانو وأصبحت تعمل بالإذاعة.. وعادت إلى هنا في أحد الأيام مع زوجها وأبنائها ومعها الصور التي نجحت في الحصول عليها من قسم الإعداد بإحدى الجرائد الإيطالية في ميلانو.

وبذلك نجح إدواردو في العثور على هذا المصور وأقام معه لقاء صحفياً طويلاً.

الفصل العشرون

وصل إدواردو قبل موعده إلى محطة القطار التي كان سيركب منها ليعاود أدراجه إلى ديبريسين، لأن سائق التاكسي الذي اعتاد إدواردو أن يتعامل معه في تنقلاته داخل المدينة لم يكن يعمل هذا الصباح فاصطحب إدواردو سائق تاكسي آخر بدلاً من سائقه المعتاد، كان الرجل حليق الرأس تمامًا، وكانت بنيته القوية أقرب للحراس الشخصيين. وكما في المرة السابقة كان دائم التعبير بالإشارات الجسدية، إذ أظهر له الساعة التي كان يلبسها في معصمه لسؤاله عن الموعد الذي يجب عليه أن يحضر فيه إلى محطة القطار لمصاحبة إدواردو. وعلى الرغم من كل محاولات إدواردو لتعلم اللغة المجرية فإنه لم ينجح إلا في حفظ عدد بسيط من الجمل.. في الحقيقة، لم تكن محاولاته جادة بدرجة كافية.

شعر في بداية الأمر بالحماس لتعلم اللغة المجرية، وكان يود كتابة تقاريره الأولى باعتباره مراسلاً باللغة المجرية، ثم خف ذلك الحماس تمامًا. وعندما كان يسأله أحدهم عن المدة التي قضاها في هذه المدينة، كان يشعر ببعض الخجل وهو يجيب، لذلك كانت تعاوده كثيرًا الفكرة

في أن يبدأ من جديد؛ إلا أن هذه الرغبة لم تتحول إلى واقع عملي؛ فقد كان الكسل هو الذي يعاود للظهور والتحكم في الأمور. كما لم يكن هناك من أحد ليشجعه، ولا حتى ماجدة التي كانت قادرة على معاونته، إلا أنها في الحقيقة قد حاولت في بادئ الأمر تلقينه بعض الجمل البسيطة ولكنها حين لاحظت أنه لا يتذكر شيئًا، نفد صبرها وتخلت عن الفكرة تمامًا. ومن الناحية الأخرى، فقد حاول إدواردو مرات كثيرة أن يتعلم لغات أخرى في أسفاره الكثيرة. وربما كان ينجح بعض الشيء، لكنه ما إن يترك البلد الذي كان يقيم فيه، إلا وسرعان ما ينسى كليًا ما تعلمه.

كانت تؤرقه مشكلة النسيان، خصوصًا أنها بدأت تتعلق بأمور حدثت له منذ فترات وجيزة. فكانت الأمور والأحداث تتلاشى من ذاكرته تمامًا، وكما أنها لم تحدث قط أو أنه لم يعشها من قبل. في بادئ الأمر كان شديد الخوف من الأمر، بل وتحدث إلى طبيبه عما يحدث له. كان سبب قلقه هو تفكيره المستمر في مشهد الأشخاص الفاقدة للذاكرة وهي تهيم على وجهها في المدينة دون وجهة أو مقصد.

في تلك الأيام، وكما لم يحدث له من قبل، وعلى الرغم من الآلام والقلق، شعر بتأجج الإبداع في داخله مثل غليان وعاء الخمر، فكان ذهنه يزدهر فجأة بأفكار بارزة وتعبيرات مميزة. فتذكر أنه سمع في إحدى المرات، أحد كبار النقاد يؤكد أن بيت شعر ملهمًا، يكفي لخلق

شاعر كبير. فلماذا لا يصبح شاعرًا بدلاً من كونه صحفيًا؟ وبعد التفكير، وجد أن الأمر ضرب من السذاجة؛ وإن كانت تعجبه فكرة العمل على تجسيد الأحلام، والخواطر.

كان إدواردو يذكر اقتناع جيرتي الشديد بآرائها.. كانت تردد: «أعتقد أنني لن أتزوج أبدًا، لكنني أريد أن أنجب طفلا، لكن ليس الآن؛ فأنا أريد الآن الاستمتاع بالحياة، لكنني حين أقرر ذلك، سوف أذهب إلى إيطاليا أو الأرجنتين لاختيار شاب وسيم يصلح والدا لطفلي، ثم أعود للمنزل للولادة دون أن يعرف الأب بأمر ابنه؛ لأن الطفل يجب أن يكون لي وحدي».. وعلى الرغم من هذا كله، تزوجت وأنجبت طفلين.

وشعر إدواردو في هذا الحضن الخاطف المختلس بمحطة القطار، بثبات وامتلاء نهديها الدافئين، أما هى فأدركت أنه لم يتغير مطلقًا بعد مرور كل هذه السنين. ودق جرس بالساحة تسع مرات، ولم يتمكن إدواردو بسبب الضباب من تحديد مصدر تلك الدقات التسع.. كان الصوت يذكره بصندوق موسيقى تلقاه كهدية في طفولته، كما أن قعقعة الترام عندما توقف في وسط الساحة، كان يذكره بضجيج زمن فائت.

والآن وقد اشتد الضباب في الساحة وأعمدة إنارتها، كانت ترسم مشهدًا أقرب للسريالية، وبالكاد يرى من بين الضباب الظل المهيب الذي شكلته الكنيسة البروتستانتية القابعة في آخر الشارع، وأسفل نافذة منزله، كان هناك خيالان غير واضحي المعالم لاثنين من العمال يقومان في هذه الساعة من الليل بإعادة تجميل حوض الزهور بشتلات جديدة. انتظر إدواردو طويلاً وصول جيرتي كما وعدته، إلا أنه بدأ يفقد كل أمل

في عودتها.. فبالنسبة إليه، قضاء بعض الساعات برفقتها، كان كافياً ليجدد فيه الحياة ليبدأ من جديد.. ولكيلا يفكر في الأمر، جعل يكتب المقال الذى أراد كتابته، لكن الجمل التي يكتبها كانت باهتة. فمن ناحية أخرى، كان لقاؤه مع تلك الكاتبة التي عاصرت الثورة بنفسها، كان مخيبًا لآماله. لم ينجح في استخلاص شيء من تلك النقاط المتناثرة المضطربة. فقط كان يتراءى أمامه جسد جيرتي العاري، مثلما في الأيام الخالية، في الفراش الكبير المرتب في حجرة نومه، لكنها لم تأت، فعذبته الرغبة طويلا قبل أن تنتابه كوابيسه الليلية.

الفصل الحادى والعشرون

كان إدواردو في صباه يحلم بالجسد الأنثوي بفضول عنيف فائق الحسية.. كان يزحف بعينيه بطريقة مرضية بين ثنايا التنورات للتدقيق بين السيقان المتشابكة، بحثا عن ذلك الكنز الغامض المثير المختبئ بينها. كان هذا العالم من الأفكار وقتها يستنفد كل طاقته العقلية ويشحذ فيه أكثر الخيالات وحشية، خيالات جامحة، متغطرسة. تماثل في غطرستها خيالات شاب مراهق لم يتيقن بعد من تلك الملامح والمنحنيات النارية. كانت وجوه ضحاياه دائمًا ما تختبئ خلف ستار أو قناع كريه متكبر، وكذلك أعضاؤهن الجنسية كانت تبدو له أشد غموضًا وهى متوارية خلف شعر كثيف يحجب تقاسيمها بإصرار. وخيالات الأرداف الكبيرة والنهود الممتلئة والأجياد الشامخة مثل نساء لوحات موراندي التي اكتشفها حديثًا في أحد المجلدات.. والسيقان الملفوفة التى يزيد فتنتها الكاحل الرقيق، في مشهد مثير يسلب العقل، شغفا يثير في الإنسان توترًا قد يقود للعمى أو الموت؛ ثم تأود أعطاف بأنهن بحركات خفيفة مباغتة، تلك الانعطافات اللينة التى يحدجها ببصره في سكون ظل المشعشع فتتجسد تماما في الرغبة المطلقة.

ويعد سنين كثيرة، وبعد اجتيازه لضراوة المراهقة، وبعد أن جرب كل فنون الحب وشهواته وكل ما تنطوي عليه من حسية جوفاء؛ لاحظ إدواردو أن الدرجة نفسها من الرغبة والنهم الحسي غير المحدود كانت تتجسد تمامًا في بعض أعمال إيجون سكيلي وفي طريقة تجسيده ورسمه للنساء والمراهقات، وفي تصويره لمواقفهن ووضعية أجسادهن المثيرة للشهوة واللذة، سواء كن ممتلئات أو نحيفات، أو إن كن رقيقات ودودات أو غريبات الأطوار، في تعبير حيوي عن بعض ما لا يمكنه الاعتراف به من شهوانية تكاد تكون مريضة، من خلال تركيز الضوء على حركات أجسادهن مما يصور الرجل بوصفه ضحية لرغباته. وقد جمع إدواردو كثيرًا من الكتب المصورة والكتالوجات، بل والروايات التي كانت مستوحاة من «سكيلي»، بعد أن زار فيينا في شبابه للدخول إلى عمق عالم هذا الفنان والتمتع إلى أقصى حد بهذه الشهوانية المركبة.

كانت بشرة ماجدة مخملية حريرية الملمس عاجية اللون مثل المرمر أو الشمبانيا، كانت حلمتا نهديها المستديرتان الصلبيتان، كبيرتين كما في لوحة «ليلة مايكل أنجلو في مصلى ميديسيا»، وعيناها المشرقتان مائلتين قليلاً للأعلى، تظللهما رموش غاية في الجمال، وقد ازدادت عيناها الناعستين جمالاً فوق جمالها بفعل الخمر والرغبة في النوم، تطلق أسر رغبة وئيدة تتظاهر بالهدوء ثم تزداد وتكبر في نوبة جنون الشهوة الجامحة، فكانت في بعض الأحيان تستلقي في سكون مسندة يداها بالكاد فوق الوسادة، كما لو كانت معلقة فوق خدر رقيق، فيبدو

جسدها كجسد إلهة نائمة.. إلهة مهزومة ولا يشي بضرواتها ونهمها للمتعة، حين تتحول نظرة عينيها من النظرة التائة الخاضعة المشدوهة إلى شفرات حادة.

يوتفوس كان يذكره باسم أحد الشوارع في كرودا دي ساجو فوق جبال كورتينا.. ألم يكن هو ذلك البارون من بودابست الذي قام بافتتاح أحد الشوارع في عام ١٨٨٤؛ ثم أطلق اسمه على أشهر جامعة بالعاصمة المجرية؟ لقد دار الحديث عنه طوال الليل وعن أحد الكتب المصورة التي وجدها إدواردو في أحد محال التحف في شارع المتحف القومي.

كان بين تلك الرسومات، لوحة تبين مضاجعة اثنين من الحيوانات وقد اتخذا منظراً شبه آدمي، مثل أبي الهول. لم تشأ ماجدة رسمه، فكما قالت لم يكن مشهدا يلهمهما على الإطلاق، كانت تجده أمرا منافياً للطبيعة، حتى إن كانت في إحدى الليالي التي لم يواتها فيها النوم، وبينما كان الجميع يغطون في النوم، جلست في المقعد الوثير تقلب جهاز التحكم، حتى وجدت إحدى القنوات الفضائية التي كانت تعرض فيلمًا جنسيًا عن نساء تضاجع الحيوانات والخيول والبغال، بل وحتى الثيران. كان الأمر صدمة بالنسبة إليها لأنها لم تكن تتخيل أن كل هذا الفحش والقذارة يمكن تحقيقة حقًا وأنه ليس مجرد خيالات مريضة. لم تغير القناة، بل بقيت مشدوهة إلى تلك المشاهد والتفاصيل، فلم تكن

قادرة على تخيل كيف يمكن لامرأة أن ترقد عارية تحت بطن حصان وأن تضع قضيبه الضخم في فرجها، ثم تجعله يغمر وجهها وشعرها ونهديها وبطنها بكل ذلك النطف الغزير اللزج فيما يشبه فيضان النهر الجارف. في الحقيقة هى الأخرى كانت في بعض الأحيان تستسلم لخيالات جامحة، وكانت دائمًا ما تقول لصديقها الذى مارست معه الجنس للمرة الأولى أن غرموله كبير مثل حمار أحد جيران جدها، والذى رأته عدة مرات في طفولتها، حينما كانت تقضي عطلتها في منزل جديها، وتذهب إلى المروج فوق التلال لتلعب مع البقر والماعز والخراف. كانت تتذكر جيداً كيف أن الأبقار حين يأتي المساء تنزل من التلال لتعود وحدها إلى الدار، وكيف أنها كانت تعرف مكانها في الحظيرة دون أن يقودها إليه أحد. فتذكر إدواردو كيف أن ابن جيوفيناتسو حين كانت تأخذه تلك الحمية المجردة فكان يطارد بعضوه المنتصب الماعز التى كان يرتفع ثغاؤها فوق تلال أربينو.

وقال إدواردو إنه يعتقد خيالات النساء عن هذا الموضوع موجودة منذ الأزل، وأن وراء الموضوع كثيراً من الأساطير. وتذكر منظر لوحة شاهدها في بيت فيتي في بومباي يشير فيها ديدالوس لباسيفاي إلى البقرة الخشبية، وتذكر أيضًا أبيات دانتي عن الشهوانيين في الأنشودة السادسة والعشرين في المطهر، حين قرأتها عليهم أستاذة الأدب، وهى مناوية تخرجت حديثًا، حمراء الشعر، جميلة وبدا عليها حسن الخلق، وقد تضرجت وجنتيها بالحمرة عندما قرأت :

«.. تدخل باسيفي في جوف (البقرة الخشبية)

ليقبل الثور ويطفئ شهوتها».

وكما حكت الأستاذة في تلك المناسبة، إن باسيفي هى زوجة مينوس وولدت مينوتور لا من زوجها، بل نتاج رغبتها غير الطبيعية في الثور الأبيض الذي أرسله بوسايدن إلى جزيرة كريت، وقد نجحت في مضاجعته بفضل البقرة الميكانيكية المبتكرة التي صنعها لها ديدالوس العبقري. كانت الأساطير تقول إن زيوس كبير الآلهة كان قد اتخذ شكل ثور أبيض، وأغرى أوروبا، ويحكى أيضاً أنه تربى في جزيرة كريت.

كانت ماجدة قد قضت إحدى إجازاتها الصيفية في كريت؛ وسمعت عن أسطورة مينوس الذي ولد من أوروبا وزيوس، بعد أن أخذ شكل ثور، وطلبت منه الآلهة تقديم ثور قرباناً ينال مباركتها في الجلوس على العرش. وظهر الثور من المياه المواجهة للجزيرة في جمال أخاذ وعضلات مفتولة، كان شديد الحسن لدرجة أن مينوس لم يرد أن يقدمه ضحية لبوسادين كما وعده، فأرسله ليرعى بين ماشيته وذبح ثوراً آخر بدلاً منه، ولم يرضَ إله البحر بهذه الخديعة، فدفع بباسيفيا التي كانت في تلك الأثناء قد أصبحت زوجة مينوس لتقع في حب الثور الأبيض الجميل. وهناك رواية أخرى للأسطورة تقول إن الإله الذي استاء كان زيوس نفسه؛ وفي رواية أخرى كذلك، يقولون إنها أفروديت.

بينما كان الصانع الماهر ديدالوس في ضيافة العائلة الكريتية، صنع لباسيفيا بقرة من خشب مكسوة بإتقان بجلد البقر وقادرة على الحركة بفضل أربع عجلات مخبأة بين الحوافر، فدخلت باسيفيا في البقرة وانتظرت أن يقرب منها الثور ليعتليها ويشبع رغبتها؛ ونتيجة لهذه العلاقة ولدت المينوتور. أما الثور بطل القصة كلها، فيحكى أنه استشاط غضبًا نتيجة لما حدث وتوحش حتى إنه دمر الجزيرة كلها حتى تمكن هرقل من الإمساك به وحمله أخيراً إلى اليونان، حيث قتله ثيسيوس.

كان المرشد السياحي شابًا خمري البشرة ذا عينين ثاقبتين وملامح يونانية خالصة، وبينما كان يحكي لهم عن الأسطورة التى كانت تختلف كثيراً عن رواية أستاذة الأدب التي سمعها إدواردو حين كان في المدرسة الثانوية، وكان المرشد السياحي يختلس بين الحين والآخر النظر لماجدة التي كانت تشعر بالانجذاب للقصة التي يرويها، وانجذبت أكثر للطريقة التي كان الشاب ينظر بها إليها.. وفي النهاية اقترب منها، وأخبرها بأنها تشبه صورة امرأة في إحدى اللوحات. ربما كانت مجرد ذريعة كي يصطحبها في الليلة ذاتها إلى قصر كنوسو حتى يريها منظر مصارعة الثيران الموجود بهذه اللوحة الرائعة. وفي اللوحة تظهر أيضًا امرأة، تشبه ماجدة - حسب كلام المرشد السياحي - وضعت رأسها في الأسفل وساقيها بأعلي، ويداها فوق ظهر ثور قوي يمسك بقرنه بهلوان، بينما يقف خلف الثور بهلوان آخر. وفي الجزيرة كان الثور المقدس يعتبر حيوانًا مقدسًا، يستخدم في مصارعات غير دموية، بل

عبارة عن وثبات وقفزات شديدة التعقيد يقوم بها بهلوانات. وكان سيجعلها تشاهد نمونجًا لثور مصنوع من الفخار ويعود للقرن السادس عشر. كان اسم المرشد الشاب ميركو، وكان على وشك التخرج في تاريخ الفن. كان يعمل مرشداً سياحيًا لتغطية تكاليف الدراسة، إلا أنه كان يقوم بهذا العمل بكفاءة واحتراف، ذلك أيضًا لأن موضوع بحث التخرج كان حول مصارعة الثيران في الأساطير والفن. كان يمكنه أن يصبح ممثلاً لأنه كان مقنعًا في أسلوب سرد الروايات.. في أول الأمر بدا كأنه يتحدث إلى مجموعة من الأطفال، لكنه حين استحوذ على مسامع جمهوره، دخل بهم إلى أدق التفاصيل. أما ماجدة التي أتمت عامها الثامن عشر لتوها، فقد سبى عقلها سحر خطاب ذلك الشاب الذي بعد أن قام بتحية والدتها وطمأنها بأنها ستعود إلى الفندق مع المجموعة، بدلاً من أن يذهبا إلى قصر كنوسو، ذهب بها ميركو للسير على شاطئ البحر حتى وصلا إلى الشقة الصغيرة التي يقطنها، والتي كانت على بعد خطوات قليلة. كان لدى ميركو أساليب إغراء لا تقاوم. أشعل بعض الشموع وذاعت في الأرجاء موسيقى ساحرة على إيقاعات تدعو للحركة والمشاركة.

كانت الحوائط تزدان ببوسترات لشخصيات أسطورية تمثل الآلهة الشهوة، ومن بينها فلورا إلهة الربيع وكل النباتات عند الرومان، كما روى لها ميركو، أنها كانت تجسد الوعد بالثمار؛ ولذلك كان الناس يربطون بينها وبين الجنس، وكانوا يحتفلون بعيدها بطقوس الجنس

الجماعي في الفترة ما بين نهايات أبريل وأوائل مايو. وكان أتباعها يقتاتون البازلاء والترمس، ويكونون حلقات يتبادلون فيها من يد بيد صوراً خليعة.

وكانت في القدم، النساء تشارك في هذه الطقوس وهن عاريات، ويبذلن أنفسهن دون تحفظ لشهوات الذكور؛ لذا كانت فلورا أيضا حامية العاهرات. وانصرفت عنه ماجدة بذهنها، بينما كانت تشاهد البوستر العملاق المعلق على أحد الحوائط لإحدى الفرق الموسيقية السويدية التي كان كل من ميركو وماجدة يحبونها حبًا حتى إن ماجدة كانت تحفظ كل أغنياتهم عن ظهر قلب. وفي لحظات وجدوا نفسيهما متعانقين وهما يغنيان معًا.. ولسبب ما، ها أنهم أخذا يتحدثان عن إيطاليا التي كان ميركو قد عاد منها لتوه، وزارتها ماجدة بضع مرات. وإلى جانب كون ميركو يتحدث الإيطالية بطلاقة، فهو كان أيضًا من عشاق السينما الإيطالية، وبالأخص أعمال فيليني، بل وكان يعرف كل شيء عنه، فلم يكن فقط خبيرا بأفلامه، بل وبسيرته الذاتية. وكان فيلليني من قال: "إن العشيقة بالنسبة للرجل مثل الزواج بامرأتين أي مجهود مضاعف". زل لسان ميركو بهذه المقولة التى لم يكن لها ارتباط بموضوع. ولحسن الحظ لم يكن متزوجًا، ومن هذه اللحظة بدآ في التواصل بالإيطالية. إن الجنس – كما اعترف ميركو لماجدة حين شعر بأنها بدأت تتأمل بعض الخواطر – هو بالأكثر وهم ونعيشه في خيالنا، فإن الرغبة وليس تحقيق

الرغبة، هى البعد الحقيقي للأيروتيكية، فالحصول على النشوة هى نهاية الإثارة؛ لذا لا يجب اعتبارها احتياجًا ملحًا يجب تخطيه في أقرب فرصة، بل هى شيء ينمو ببطء وتدريجيًا.

ربما كانت النظرة هى أكثر ما تعتمد عليه المرأة لإشعال الرغبة. وكانت ماجدة قد سحرته بنظراتها، وعندما تأكد ميركو تمامًا من أن هناك قبولاً كاملاً من ماجدة انغمسا في لعبة يصعب مقاومتها وقام هو بدور الثور. لاحظ إدواردو أن ماجدة كانت تروي له القصة ربما لتشعره بالغيرة أو ربما لإثارته كذلك، دون أن تدري أنه لم هناك من داع لذلك مطلقًا.

الفصل الثاني والعشرون

«انطلقوا آلامكم»، همس وهو ينظر مباشرة إلى عينيها بعمق، «اتركوا شيئًا لأحبائكم»، أردف دون أن يعطيها الفرصة للتعجب من تلك المقولة التي ربما ساعتها لم يكن يدرك أنها من أقوال شكسبير على لسان ماكبث.

ظلت تفكر طوال الليل، ليس خوفًا من الموت ولا في نهايتها، ولكن فقط في ابنتها وكيف كبرت وأصبحت فتاة جميلة، وهل ستتعرف على والدتها وتتذكرها؟

عندما انتزعوها من أحضانها قائلين إن أمها لن تمس بسوء، وإنها ستعود إلى البيت، لم تصرخ مثل أي طفل، ولكن تظاهرت بتصديق كل ما يقال لها وخط وجنتيها دمعتان كبيرتان صامتتان جففتهما بطرف مريلتها، وحيت رافعة يديها الصغيرتين. كان آخر ما شاهدته منها وجهها الصغير المستدير وعينيها الكبيرتين السماويتين. كانت تنظر إليها بلهفة بقلق مستسلم لو استطاعت رؤيتها لو للحظة، يكفي لحظة قليلة تراها فيها تتقابل نظراتهما وبعد ذلك كانت مستعدة للذهاب إلى مصيرها برأس مرفوع دون ندم.

كانت واثقة من اليوم الذي سيتم فيه الكشف عن القتلة؛ وأن التاريخ سيكشف عن الحقيقة كاملة.. ربما وضع أحدهم زهرة فوق قبرها، أو ربما ابنتها التي كبرت الآن في عالم حر ستنتقم لأمها؛ وتكشف للجميع الوحشية التي عوملت بها؛ وأن تلك البربرية ينبغى ألا تتكرر مع أي إنسان أو في أي مكان آخر. كانت إيستر تفكر في ذلك في اللحظات النادرة التى كان سجانوها يتركونها وحيدة في عتمة الزنزانة، القذرة كرية الرائحة.

كانت أحيانًا تتحايل على الوحدة، وتستطيع المقاومة.. تعيد اكتشاف أو اختراع طفولتها وشبابها.. وتتذكر عندما كانت تلعب في طفولتها مع صبي أشقر كان يحكي رغبته في أن يصبح محاربًا شجاعًا يدافع عنها ويحميها من مكائد الدنيا. أما الرجل الذي أنجبت منه ابنتها، فلم تكن تفكر فيه قط، كان قد تركها وهرب ليعيش في الخارج، ربما كان قد تزوج وأصبحت له عائلة أخرى.

لم تعرف عنه شيئًا منذ مغامرة هروبه، وقد اختبأ بين الأبقار في عربة بهائم، كانت تعلم فقط بوجوده في أمريكا ربما في كندا. وقد أثارت السيدة ريبلي مشاعر جميع الحاضرين؛ وبعدها ألقي مداخلة مخرج سينمائي كان بين الحضور، وكان قد فقد عمه أثناء الثورة وقد تحدث لأنه كتب سيناريو عن قصة تلك المرأة؛ وكان يرغب في بداية عمل فيلم تسجيلي عنها.

كانت الابنة تجلس بجانبها وروت للجمهور حكايتها المفزعة، ولكنها الآن تعيش سعيدة مع عائلتها.. وكان هناك أيضًا الأحفاد الثلاثة بين الجمهور وهم منتبهون تمامًا لما يقال.

بعد ذلك، تحدث أحد اللواءات، كان إدواردو قد قابله من قبل وأجرى معه حوارًا صحفيًا، وقد رآه وهو يكاد يبكي عند روايته عن الصبية الكثيرين الذين ما إن تعدوا سن المراهقة بقليل، تطوعوا في الجيش المؤقت الانتقالي وكانوا يحاربون فوق الدشم بجانب الكبار، بينما أمهاتهم كن يبحثن عنهم عند القائد ويتوسلن إليه أن يجعلهم ينصرفون.

ثم أجريت مداخلة للحديث عن مصور إيطالي سويسري لقي مصرعه في اليوم الأول من المعارك برصاصة طائشة، وفي ذلك اليوم كان من المفروض كشف الغطاء عن تمثال نصفي له أقيم في الميدان الذي سقط فيه. وكان رئيس الجمهورية الذي ألقى كلمة قصيرة ولكن مؤثرة جدًا، يستمع وقد بدا عليه التأثر، بينما جلس بجواره السفير الإيطالي ومدير المعهد الثقافي. بعد المداخلات الرئيسية جاء دور الشباب للحديث عن الثورة وآمالهم في المستقبل. كان إدواردو يجلس بجوار كاتب مسرحي عجوز يبلغ من العمر نحو تسعين عامًا، وقد أصبح من أصدقائه المقربين، وقد تناول معه طعام الغداء عدة مرات بمقهى نيويورك، وأيضًا في «سينزيزدار» وقد حكى له كثيرًا من القصص التي لم تنشر والتي تستحق الرواية.

وقد شاهد إدواردو جالسًا في الصفوف الأخيرة أيضًا المخرج الذي قابله عدة مرات في المقهى، والذي درس بروما بالمركز التجريبي للسينما، وقد أخرج فيلمًا تسجيليًا عن المدينة الخالدة تحت عنوان «معزوفة بروما».

الفصل الثالث والعشرون

كان المهندس المعماري الذي يرافقه حليق الرأس، يشبه بريكليس بعض الشيء، وعيناه مفعمتان بالحياة والفضول، كان يذكره قليلاً بدانونسيو، ماذا حل بذلك المكان الذي ولدت فيه أجمل صفحات الأدب المجري في القرن العشرين؟ وقصص الحب الخالدة والقرارات المهمة. ففي هذا الموضع كتب حقًا جزءًا من تاريخ الأدب المجري.

الآن أعيد لهذا المكان بهاء الماضي، ولكن لماذا تم اختيار أثاث حديث لمبنى من طراز باروكي، ومن طراز عصر النهضة وعصر الروكوكو؟

على سبيل المثال، لماذا وضعت المرايات على مناضد القهوة؟ ربما وضعت ليجلس المرء وناظراه للأعلى حتى يشاهد جمال السقف المزين بمجموعة متنوعة ومتناغمة من الموضوعات العاطفية والفنية والمرحة. وعلى هذا النحو، حتى إن كان المرء يرتشف قهوة إيطالية لذيذة، كان لعينيه أن تتوه منجذبة للمرايا التي تعكس صور القبو المزين. كان الكل على دراية بسبب تسمية هذه القهوة «قهوة نيويورك»، حتى السائحون

الأقل خبرة بالمدينة، لأنها موجودة في كل كتيبات الإرشاد السياحي. وكان الاسم يكتب ككلمة واحدة «Newyork»، والذي كان اسمًا لإحدى شركات التأمين التي أنشئت المبني في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد في عام ١٨٩٤.

وقد أفلست شركة التأمين بعد ذلك، وأصبح المكان ملتقيًا للأدباء، والفنانين ورجال السينما والموسيقيين. قال المهندس المعماري وهو يقود إدواردو نحو الصالة الرئيسية الواسعة مستطيلة الشكل، والتي تحتوي على كثير من الأقواس المتساوية التي كانت تزين شرفات طوابق المبنى، إن هذا المكان سيكون تدشينًا للمبنى بعرض أزياء إيطالي لجان فرانكو فريه.

وقد انبهر إدواردو ببياض الحوائط ورخام الأرضيات اللذين كانا يضفيان على الشكل العام جوًا فريدًا يدفع لرؤية السماء التي غطتها السحب القليلة من خلال الواجهة الزجاجية الكبيرة، وقد تذكر إدواردو ليندا، وأولى حبيباته في المدرسة الثانوية، عندما كانا متعانقين على شاطئ البحر ينظران إلى النجوم، وكانا يحلمان بالقيام برحلة معًا. وقد قال لها إدواردو إنه سيعاملها مثل ملكة، وسيجعلها تقيم في قلعة مسحورة. كان يشعر بأنه قد تخيل مثل هذا المكان لتحقيق أحلامه.. كان يمكن تحقيق ذلك الحلم في الجناح الرئيسي. الآن وقد اكتملت أعمال الترميم بعد أن شاهد إدواردو المرحلة الأولى من العمل وقد أنفقوا عليها ببذخ، فكانت نجفة ضخمة من زجاج الموران تتوسط الصالون الرئيسي.

كانت التصميمات ملونة زاهية وتؤثر في النفس بشكل كبير عند مجرد النظر إليها وتبرز المكان بشكل أسطوري. فكر إدواردو أنه ربما لو كان لا يزال في عمر المراهقة عندما كان يعيش في الأحلام! من يدري كم كان مستعداً أن يدفع لقضاء ليلة مع ليندا في ذلك المكان.. ولكن مر زمن على ذلك التاريخ وأصبحت ليندا تعيش فقط في ذكرياته التي بهتت بمرور السنوات. كانت هناك على العكس تلك السمراء الشهية التي اصطحبته المرة الأولى؛ وكانت تطفو إلى ذاكرته كل حين ثم تبتعد في تبختر وخيلاء.

بماذا تأثر كل من جروزلاف مانهيمروف وريتيك إيزيهود عندما قاما بعمل الأفريسك في المقهى؟ بالتأكيد بإله الخمر، في «لوو» وفي العرائس والحوريات في خلفية هادئة ومبهجة. ولكن من المعماري الذي صمم ذلك المبنى المهيب؟ كان إدواردو قد بدأ رحلته من ذلك المكان من ذلك الرمز لبدء رحلته عبر الثورة والثقافة المجرية.

وكان دفتر تليفوناته قد امتلأ بالأسماء والأرقام؛ ومن بينها رقم ذلك الكاتب المسرحي صديقه الذي كان ينتمي عام ١٩٥٦ إلى بيتوفي، وكان بالتأكيد يبلغ من العمر ما يسمح له بتذكر كثير من الذكريات عن المكان والمترددين عليه. كان أسلوب العمارة في المبنى ينتمي إلى المدرسة التركيبية ويكشف عن تأثره بكثير من المدارس في فن العمارة من عودة الباروك إلى فن عصر النهضة إلى الروكوكوو.

وعند بداية إعداد المكان تم استدعاء مهندس عمارة من أصل مجري يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اختار تصميماً معيناً،

تصميماً يجمع بين القديم والحديث، وقد تم إلحاق أكثر من مئة غرفة من غرف القصر بالفندق.

وكان الكاتب المسرحي العجوز الذي أصبح تقريبًا صديقه، يذكر المكان بشكل مختلف تمامًا، وإن كان الترميم والشكل الجمالي يقرباه من المبنى الأصلي فإن المناخ اختلف عما كان عليه .

كان إدواردو قد انتظره في المرة الأولى التي قابله فيها بمنضدة في المطعم الذي يتم الدخول إليه عبر المقهى عن طريق درجة سلم، يقدم المطعم أطباقًا من المطبخ العالمي، خصوصًا المطبخ الإيطالي، حيث يعمل الطباخ ذو الأصول التي تعود إلى مدينة نابولي.

الفصل الرابع والعشرون

أراد إدواردو الذهاب إلى المقابر لرؤية شاهد قبر الفتاة بترا التي تظهر في الصورة، الفتاة ذات الوجه الضاحك السعيد.. بجوار الصورة وضعت زهرة لا تزال ندية.

كانت بترا وقت وقوع تلك الأحداث في السادسة عشرة من عمرها. ومثل كل الفتيات في تلك المرحلة كانت أقرب إلى الأحلام منها إلى الواقع، كانت رائعة الجمال تفتحت فجأة مثل بعض الزهور في المروج الخضراء الواسعة لمرحلة الطفولة، عينان عميقتان لامعتان ووجه حلو القسمات وفم ذو شفتين رائعتين.

وقد اكتمل نمو ثدييها وأصبحت ذات أرداف ممتلئة تضغط باستدراتهما النضرة على الرداء الأزرق المفتوح من الخلف؛ ما يظهر جمال ساقيها المتسقين الملتفتين، وكانت طريقة مشيتها وحركاتها راقصة، وكان كل جسدها جميلا مغريًا.

وقد أصبح الرقص عشقها الحقيقي ربما أكثر من الموسيقى التي كانت تعزفها أيضًا منذ فترة. في بادئ الأمر، كان بمثابة العذاب

الاستيقاظ مبكراً كل سبت، بينما زميلاتها يغطن في النوم في أسرتهن الدافئة والقيام بتلك التدريبات التي لا تنتهي أيضًا في الشتاء في البرد القارس عندما يكسو الجليد الطرق.

كانت مدربة الرقص تُدَرس بمدرسة تقع في ضاحية بعيدة، وكانت تستقل الترام مرتين لتلحق بها، ولكن في نهاية الأمر انتصر حبها للرقص الذي أسهم بشكل كبير في إضفاء جمال على تقاسيم جسدها.

كانت تحلم بأن تصبح راقصة باليه مشهورة، وأن تنضم إلى فرقة باليه دار الأوبرا. أيضًا مدرس البيانو كان يغيش في إحدى الضواحي في الناحية الأخرى من المدينة، وكان يمكن الوصول إلى بيته باستخدام المترو. وفي المرة الأولى رفضت تقريبًا الذهاب إليه.. لم يكن يهمها تعلم الموسيقى، فقد ذهبت إرضاء لأمها التي رغبت في تعلم البيانو والرقص، ولم تنجح، وعندما اصطحبتها معها للمرة الأولى تحدثت طويلاً معه. لم تفهم بترا ماذا يمكن أن تجد امرأة مثل أمها، لا تزال شابة جميلة في رجل أصلع تمامًا، قبيح بعينيه الصغيرتين اللتين تتراقصان وراء عدسات سميكة مستديرة، تبدو بدون إطار وقد استندت فوق أنف لا يتناسق مع ذلك الذقن الصغيرة والوجه النحيل الشاحب الذي يتوه فيه النظر. كان يرتدي بلوفر أزرق وبنطالاً باللونين الأخضر والفستقي، فقط يداه الطويلتان الرقيقتان المدربتان على البيانو كانتا تتباهيان بجمالهما في ذلك الجسد النحيل البائس.

كانت بترا تستحضر دائمًا هاتين اليدين أمام عينيها، كانت تحلم بهما وهما يبحثان بحرية بين ساقيها، وكانت تستيقظ فجأة. كان كابوس ينتابها دون سبب، فلم تصدر عنه إشارة أو تلميح يقودان إلى أحلام من ذلك النوع.

كان الرجل نظرًا لنحافته الزائدة يعطي الانطباع بأنه نجا من معسكر اعتقالات النازية.. كان يتحرك مثل خيال شفاف، معطيًا شعوراً بأنه يجر قدميه، فكان نادراً ما يرفع ساقيه ويتقدم بخطوات صغيرة جدًا. كان يترك شيش النوافذ نصف مغلق كأنه يرفض التواصل مع العالم، والحجرة التي كانت تحوي البيانو كانت في مناخ من اللا مبالاة الغامضة. وكانت إحدى لوحات سيكيل معلقة فوق إحدى الحوائط، لوحة شخصية تصور الرسام وتشبه مدرس البيانو إلى حدٍ ما.

وبجانبه في لوحة أصغر، صورة ليتس يعزف البيانو كما هو موضح أسفل الصورة يعزف مقطوعة لبيتهوفن.. وفي وسط الحجرة منضدة مستديرة وقد وضع حولها مقعدين بيدرمير منجدين بقماش قديم أحمر اللون، والستائر القطيفة ذات اللون الأحمر القاني القديمة المتهللة والتجفة صغيرة الحجم بالنسبة إلى الحجرة ومعلقة بسلسلة ذهبية تنتهي بحلقة من المعدن ذهبية أيضًا تميل مع أربع قطع من كريستال بويما والتى عتم زجاجها بمرور السنين.

كانت المرآة الكبيرة فوق الحائط مستطيلة الشكل فضية الإطار؛ وقد أسود زجاجها عند الزوايا وفي المنتصف، مكونًا ما يشبه الوردة

فوق النافذة بشكل غامق، كأنه متعمد كي لا يرى أحد نفسه فيها.. وفي أحد الأركان وضع رفٌ يعلوه الغبار وممتلئ بالمقطوعات القديمة.

كان المايسترو عند جلوسه إلى البيانو فقط في تلك اللحظة؛ جسده الهزيل الضعيف يكتسب قوة ويتغير كل ما في الحجرة ويبدو كل شيء أكثر إضاءة وإشراقًا.

كانت بترا تذكر المرة الأولى التي ذهبت فيها؛ وقد بكت طوال الرحلة إلى أن خرجت من باب المصعد في الدور السابع من ذلك المصعد خافت الضوء في العمارة الضخمة وأحد المباني القليلة بجوار غيره من المباني في تلك الضاحية الرمادية لبودابست، وأستاذ البيانو الذي قبل الأم فوق وجنتيها بعد أن نظر إليها طويلاً قابلها بابتسامة واسعة أظهرت سنتين مركبتين الواحدة فوق الأخرى؛ كانتا تبدوان كأنهما تتنافسان الأنف في الطول وشعرت فوراً بعدم استلطاف تجاهه؛ لأنه بعد ابتسامة الترحيب والتحية، بدا كأنه نسيها تماماً. ولم تكن تعرف بترا أنه وأمها صديقان منذ فترة طويلة وقد ترددا معًا على المدرسة الابتدائية ثم تقابلا صدفة في نادي بيتوفي، وكانا يلتقيان بانتظام بالمقهى المجري قبل أن يطرد فجأة من أوركسترا راديو الدولة ويسجن لاعتباره من الانقلابيين.

لم يفهم أحد سبب القبض عليه، ولكنه لم يكن الوحيد أو الأخير في مناخ المؤامرات والفتن والشكوك والذى كان يخيم على البلاد، لدرجة كان يخشى معها المرء الحديث مع جيران المنزل المجاور والذين يعرفهم منذ زمن طويل.

كان قد عاد لتوه من رحلة بفيينا، حيث عزف مع الأوركسترا الفيهارموني لدار الأوبرا. وفي اليوم التالي تم استدعاؤه إلى معسكر الشرطة السرية، وتم استجوابه. وفي فيينا، حيث كان يحظى بحب الجميع بعد الحفل دُعِيَ إلى بيت رئيس دار الأوبرا الذي أهدى إليه رسمًا، وربما قد ترك لنفسه العنان وامتدح كادر. وفي أثناء الاستجواب لم يفصح عن معلومات أو عن أشخاص كانوا بصحبته في فيينا، حيث كان تحت مراقبة مستمرة من البوليس السري.

الآن يعيش في ضيق من العيش ويكسب رزقه من إعطاء الدروس الخصوصية. وقد كان في وقت ما واحداً من أهم عازفي البيانو في المجر، بالتأكيد أكبر عازف لسيمفونيات بيتهوفن.

كان واحداً من القليلين، وربما الوحيد الذي كان ينجح في عزفها من الذاكرة.

لدرجة أنه عزف السيمفونية الثانية والثلاثين التي يعتبر الجميع أنه من المستحيل عزفها دون نوتة؛ ومنذ فترة كان يطلب منه إقامة حفلات في الخارج، وخصوصًا في النمسا، سواء في فيينا أو سالِيسبورج. وكانت الأسطوانات التي يسجلها يمكن شراؤها من أي مكان في العالم، إلا أن سفره أصبح في غاية الصعوبة، حتى بالنسبة لعازف بيانو في شهرته إلا إذا قبل ببعض التنازلات.

وذات يوم بعد أن طلب الفيزا لإقامة حفلات في النمسا وألمانيا، زاره اثنان من رجال البوليس السري.

كانت سيمفونية بيتهوفن قد سحرت بترا فوراً؛ وجعلتها تعجب بهذا الرجل ذي المظهر التافه الذي كان يحرك أصابعه مراوحًا بين الخفة والقوة. وعندما كان يلتقي والدة بترا كان في أوج نجاحه أيضًا مع النساء.. وكانوا قد احتفظوا له بمنضدة لا يجلس إليها أحد غيره. عندما كان يدخل إلى المكان، كان يهيمن الصمت على الجميع. وذات مرة عزف أيضًا هناك فوق بيانو تقليدي تحية لصاحب المقهى الذي كان يعرفه منذ أيام الطفولة، حيث كانا يقطنان في البناية السكنية نفسها.

ومنذ أن خرج من السجن وهو يعيش كالمسجون.. الوحدة الطويلة في الزنزانة والاستجوابات التي لا تنتهي دمرت ثقته واحترامه لنفسه. كان نادراً ما يخرج من بيته ويعطي الدروس الخاصة ببيته. وكانت بترا قد سحرها عزفه منذ الدرس الثاني عندما عزف سيمفونية في ضوء القمر لبيتهوفن، وقد حدثت نفسها ذات مرة وقد نسيت لوهلة أمر الرقص: آه كم أود العزف مثله. أما بالنسبة إلى الرقص فقد كان الأمر مختلفًا منذ البداية. في دروس الرقص كان هناك كثير من الفتيات من مدرستها ومنهن صديقتها المقربة تيميا. كانت تتقابل مع تيميا كثيراً وفي بعض الأحيان كانتا تنامان معًا في سرير الأم الكبير منذ أن سقط الأب، الضابط الطيار بالجيش بطائرته وتحطمت في ريف كيشكمت في أثناء تدريبات طيران.. كانت لا تزال صغيرة جداً. كانت تتذكر الأب في حلته الرسمية عندما يعود من مهماته ويأخذها بين ذراعيه يؤرجحها ويمطرها بالقبلات. لم يتم قط الكشف عن أسباب ذلك الحادث على

الرغم من أن الأم ذهبت عدة مرات إلى القيادة العامة وحاولت مقابلة قائد فرقة الزوج. وكان والد بترا قد عمل في المعسكر نفسه، حيث كان العقيد مالتير الذى كان صديقًا حميمًا للواء بيلا كيرلي. وقد أشار اللواء كيرلي إلى ذلك الجندي المغوار عندما أجرى إدواردو معه الحديث الصحفي.

وبمرور الأيام ساعدها الرقص على تغيير جسدها. كانت في أحيان كثيرة تستعرض جسدها أمام المرآة الكبيرة في حجرة نوم والدتها وتعيد الحركات نفسها التي تعلمتها في أثناء الدرس. كانت في بعض الأحيان تقف عارية تمامًا أمام المرآة وتدرس جسدها في كل تفاصيله، وكانت تندهش كثيرًا عند ملاحظة أن شعرالعانة قد أخشن واكتسب اللون الأحمر على الرغم من أن شعرها ناعم.

الشيء نفسه فعلته مع تيميا، فقد أخذتا في القفز حتى سقطتا فوق السرير الكبير، ودرست كل منهما جسد الأخرى بكل تفاصيله دون الشعور بأي خجل أو لمس ذلك الشعر الذي يزداد باستمرار، وكان من الغريب أنه كانا اللون نفسه في كلتيهما على الرغم من أن بترا كانت حمراء الشعر، بينما تيميا كانت ذات شعر أسود فاحم. وذات مرة داعبت كل منهما حلمة ثدى الأخرى وهما تتحدثان عن شاب كانتا تحبانه.

وفي ذات مرة دخلت الغرفة والدة بترا دون طرق الباب ووجدتهما عاريتي الصدر أمام المرآة، لم تبدِ أي دهشة، وإنما امتدحت جمال

ثدييهما. ثدي تيميا الذي يشبه الكمثرى، وثدي بترا المستدير، وتذكرت أيضًا مداعبات المراهقة عندما كانت تعيش مع عائلتها في بيس؛ ولكنها لم تمارس تلك المداعبات مع صديقاتها، وإنما كانت مداعباتها الجنسية الأولى مع زميل دراسة يكبرها سنا .كان يسمى أتيلا وكان يقطن في البناية المقابلة لبيتها.. كان والداها يمنعانها من التردد على بيته، حيث كانت هناك شكوك حول حقيقة عمل والده، كانت تتردد شائعات حول عمله في البوليس السري. كان يجيد التحدث بلغات كثيرة، وكان يختفي لفترة لا يعلم فيها أحد عنه شيئًا. وكانت أمه تعمل في البلدية في مكتب تسجيلات المواليد.. لم تكن والدة بترا تعبأ بعمل أبيه أو بعدم رضا والديها، كما لم تعد تهتم بتقريع المدرسين المستمر لها لإهمالها دراستها وعدم اهتمامها بالمدرسة.

كل ظهيرة عندما كانت تذهب أمه إلى وردية بعد الظهر، عند بقائه وحيدًا بالمنزل كان يقف خلف ستارة نافذة حجرة النوم منتظرًا عودتها من المدرسة، وعندما يراها في نافذة حجرتها، كان يرفع الستارة ويحييها بيده ليخبرها بأنه وحده بالمنزل وبالمجيء إليه.

عندئذٍ كانت تتحايل للخروج وتدلف في بوابة عمارته دون أن يراها أحد وتصعد السلم قفزًا لتلحق به. كانا يخلعان ملابسهما بسرعة ويمارسان الحب مثل حيوانين صغيرين؛ ثم وجد ذات يوم في دولاب والديه أسفل الملاءات المكوية كتاب كامسورتا، وهو كتاب مصور يوضح

الأوضاع المختلفة لممارسة الجنس أطلعها عليه فكانا كل يوم يمارسان وضعًا جديدًا.

كان يعجبها تمسيده وتقبيله وإن كانت تنتابها الكحة عندما كان يدفعه بقوة داخل فمها.. وذات يوم انتقل مع عائلته ولم تَرَه بعدها.

وذات يوم بعد أن عزف المايسترو موتيف لبترا حكى لها كيف كتب بيتهوفن سيمفونية «في ضوء القمر» التي ألهمته فيها حبيبة تصغره في السن كثيرًا؛ كانت تعيش في قلعة مارتونفاسر التي تبعد نحو ثلاثين كيلومترًا عن بودابست.

وكما حكها لها المايسترو بدت الحكاية مثل حلم جميل.

الفصل الخامس والعشرون

اصطحبت جيرتي إدواردو ذات يوم لزيارة قلعة مارتونفزار، حيث كانت تقام كل صيف حفلات موسيقية لبيتهوفن بمشاركة الأوركسترا الفيلهارموني الوطني.

وذهبا معًا في صباح أحد الآحاد. كانت جيرتي تعرف المكان جيداً، لم يفتها قط حضور حفل موسيقي لبيتهوفن، كانت أيضًا من عشاق بيتهوفن، وكانت لديها أعماله الكاملة، وأحيانًا السيمفونيات بتسجيلات مختلفة لكبار العازفين، وكانت لديها أيضًا تسجيلات عزف بيانو للمايسترو بترا، وحيث قام بتسجيلها هونجاراتون بالمعهد الثقافي الإيطالي. روت له وطوال الرحلة التى قطعها بالسيارة من بودابست إلى مدينة مارتونفازر علي طريق «إم ١» من فيينا، الكثير من الحكايات التي لم تنشر من قبل عن إقامة بيتهوفن في ذلك المكان، كانت تريد اصطحابه لزيارة متحف مقتنيات الموسيقار الكبير الذي نزل في ذلك المكان عدة مرات في ضيافة عائلة برونسويك.

وقد ركنا العربة في شارع جانبي مغلق أمام البوابة الرئيسية

بجانب سيارة ترابنت قديمة جدا تزينها ألعاب تتدلى منها، وبل بها أيضًا مثبت بدائي لعجلة القيادة ضد السرقة على الرغم من صعوبة احتمال حدوثها.

كان إدواردو قد قرأ عن قلعة برونسويك؛ وكان يعلم أنها أقيمت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتم تجديدها بعد نحو قرن في طراز نيو جوتيك إنجليزي، وكان قد قرأ أيضًا أن بيتهوفن كان صديقًا للكونت فيرنيك برونسويك، وقد مكث بها مرتين في عام ١٨٠٠، وعام ١٨٠٦.

أما حقيقة كتابته سيمفونية في «ضوء القمر» كما كانت تصر جيرتي على روايتها، فلم يؤكدها أي من المؤرخين الكبار لحياة بيتهوفن، من أن جوزفين الملقبة بيبيي إحدى شقيقتي كونت فرينيك التي بدت الحبيبة الأبدية لبيتهوفن؛ كما يفهم من الخطابات المعروضة بالمتحف الصغير بالدور الأول بالقلعة.

ومن ناحية أخرى، كما كانت تقول جيرتي، فإن بيتهوفن كتب سيمفونية العاشقة إلى عائلة برونسويك؛ لذا لا يمكن استبعاد أن السيمفونية قد كتبت في مارتونفيزار مثل سيمفونية «ضوء القمر».

وقد أعجب إدواردو جدًا بالحديقة التي تحيط بالقصر بأشجارها العتيقة؛ والزهور المنتشرة في كل مكان وشجيرات يانعة وحديقة خلابة معتنى بكل تفاصيلها.

وقد أثار فضوله رؤية عروسين بثياب الزفاف يختالان في أكثر الأماكن في الحديقة جمالا؛ ليلتقط لهما المصور كثيراً من الصور الفوتوغرافية الرسمية للزفاف.

وكان هناك شاب وفتاة أمام البوابة. وعلى مسافة قليلة تمثال نصفي لتريز برونسويك، شقيقة جوزفين التي ربما كانت أيضًا عشيقة للموسيقار، وقد أسست المدرسة الابتدائية الأولى في المجر.

اقترب إدواردو من جيرتي وترجم لها الكتابة المحفورة فوق الرخام الأبيض الذي يحمل جذع تيريز.

أما التمثال النصفي الذي يمثل بيتهوفن، فقد وجدوه فوق جزيرة صغيرة في منتصف البحيرة الرئيسية التى كان يمكن الوصول إليها عبر جسر صغير من الخشب. وأمام التمثال النصفي وضعت خشبة مسرح مستطيلة وكثير من المقاعد البلاستيك ذات اللون البرتقالي، وقد اصطفت المقاعد على الجانبين. وكانت جيرتي تقضي كثيراً من الليالي في سماع الموسيقى مختلطة بين السائحين وسكان بودابست الذين كانوا يملأون الميدان أمام القلعة. وكانت تحيط بالميدان أشجار عتيقة كانت جذورها تنبثق من تحت الأرض بأشكال متشابكة تبدو كأنها أعمال فنية.

لاحظت جيرتي قطًا أبيض يتمطع بمكر فوق قطعة حجر تنبثق من الأرض، وقد حفر فوقها عبارة.. أرادوا تصوير القط فلم يتحرك، بل على

العكس أعطى الانطباع بأن اللعبة تعجبه وأخذ يتحرك في جميع الأوضاع. وعلى بعد خطوات قليلة كان يختبئ بين فروع الأشجار المنخفضة ما يشبه الكوخ، وبجانبه مخزن بعربة يدوية صغيرة من المعدن وكثير من الأدوات التي تستخدم في تنسيق الحدائق.

كان الباب الخشبي موارباً وبه قفل كبير به مفتاح مغروس يتدلى من الخيط الحديدي الصدئ.. أراد إدواردو أن يرى المكان.

وعلى بعد أمتار قليلة في البحيرة خلف الكوخ، سرب من البجع الغاضب كان يحارب سحابة من الحشرات الطائرة، وبعض أفرخ الدجاج تزقزق بتعب حول الدجاجة الراقدة في الحظيرة الصغيرة أمام باب الكوخ الجميل وحولها زهور النرجس، تتطاير فوق حافة البحيرة بمجرد ملامسة الريح لها. وبجوار السور كومة من الخشب تستخدم في إشعال النيران.

قفز إلى ذهن إدواردو مشهد من رواية عشيق مدام شاتيرللي، عندما اقتحمت كوستانس كوخ ميللوس حارس الصيد بعد عدة زيارات بريئة مهدت لنمو عاطفتها نحوه؛ وانتهى الأمر بعناق حار والتفا جسديهما وتدحرجا فوق أرض الكوخ، وقد قرأ إدواردو تلك الرواية عدة مرات عندما كان صغيراً دون علم والديه، فقد عثر على نسخة قديمة مخبأة في الصف الثاني في الرف العلوي من مكتبة الأب؛ ثم شاهد الفيلم وأعاد مشاهدته وقد قامت ببطولته سيلفيا كريستال ونيكولاس كلاي.

وقد كانت كريستال أكثر من رائعة في أداء دور كنستانس، ربما أكثر جمالاً وحسية من وصف لورانس في الرواية. وقد انتابته رغبة مفاجئة وهو يتذكر جسد كوني الجميل عندما ضاجعها ميللورس.

بقيت جيرتي خارج البوابة وقد انشغلت بثمرة بلوط وقعت فوق رأسها، وبالطبع لم تكن تخمن في ماذا يفكر إدواردو وما ينوي أن يفعل معها، وإن كان ينظر إليها بعمق شديد، ربما كان بيتهوفن وجوزفين يتقابلان هنا ويتبادلان الحب، لو استطاعت تلك الأشجار العتيقة الحديث لحكت كثيراً. احتضن إدواردو جيرتي وقبلها بقوة.. همست جيرتي بغنج: إن الناس سيروننا.

وفي نهاية الدرب، كان هناك شابان يمشيان متعانقين ببطء، يقبل كل منهما الآخر وينظر كل منهما في عين الآخر، غير عابئين بما يحيط بهما. ود إدوارد لو مارس معها الحب مثل المرة الأولى في تلك الليلة بروما.

الآن وقد مر على تلك الليلة سنوات عديدة: «أنت يا عذراء السكون»، بيت الشعر لجون كيتس الذى أنشده لورانس على لسان كليفورد في أثناء حديثه مع كوني.

وقد شعر برغبة عارمة عندما عادا إلى القلعة. شرحت له جيرتي أن جزءاً كبيراً من المبنى يضم مركزاً لمعهد الأبحاث الزراعية والمزرعة

التجريبية للأكاديمية المجرية للعلوم. أرادا أيضًا زيارة الكنيسة الكاثوليكية ذات الطراز الباروكي الملاصقة للقلعة، حيث يوجد قبر تيريزا برونسويك.

جلسا فوق دكة على حافة البحيرة وتحدثا طويلاً غير مبالين بالوقت، وكانت تتخلل حديثهما لمسات حانية.

وطبقًا لقول جيرتي التي كانت تردد باقتناع ما سبق أن ذكرته من قبل أن حبيبة بيتهوفن والتي وجه إليها الخطاب الملتهب بالعاطفة، والذي كتبه عام ١٨١٢ في تبليز، حيث ذهب للاستشفاء بمياه الآبار، هناك هي بالتأكيد جوزفين.

لم يشأ إدواردو معارضتها على الرغم من أنه في الليلة السابقة قد قرأ أن كثيراً من الباحثين دون دلائل قاطعة قد رشحوا كل صديقات وتلميذات بيتهوفن باعتبارهن حبيبات محتملة وجهت إليهن تلك الرسالة.

وعند لحظة معينة، وكانت تفصلهما خطوات قليلة عن زوجين شابين يتبادلان القبلات أمام المصور الفوتوغرافي، بدأت جيرتي في إلقاء بداية الخطاب أولاً بالألمانية، ثم بعد ذلك بالإيطالية، ولم يدركا أن خلفهما كانا يقف زوجان شابان آخران. كان العريس الشاب إيطاليًا، طلب من جيرتي أن تكرر العبارات التي ألقتها مرة أخرى، وأنشدت جيرتي بمبالغة كانت الوحيدة القادرة عليها في بعض لحظات الإلهام في إيجاد العبارات المناسبة للحدث.

«مـلاكي، أنت لي أنـا، أنت أنا، أخط لك بالقلم بضـع كلمـات. هل يمكن لحبنا أن يعيش بشكل آخر؟! كل حين أشعر بأن الكلمات لا تعبر عن أي شيء، لا قيمة لها، أنت دائمًا حبيبي المخلص، كنزي الوحيد، كل ما لدي، كمـا أنا بالنسبـة إليك. أمـا مـا قـد يحـدث لنا في المسـتقبل فْستقرره الآلهة.. أنتِ ليَّ للأبد، كما أنا لك للأبد».

وفي نهـاية يوليـو من ذلك العـام، تذكـرت جيـرتي، بعد أن شكرها العروسـان وابتعدا، أن بيتـهوفن قـابل الشـاعر الألماني الكبير جوتة عن طريق بيتنينا بريناتانو التي – طبقًا لأقوال الدارسين – هي واحدة من أكثر المرشحات لتلك الخطابات. ولم تنشـأ صداقة بين الاثنين على الرغم من أن بيتـهوفن ألَّف موسيقـى لكثير من قصـائد الشـاعر الألماني الكبير. ولم تولد صـداقة بين بيتهوفن والموسيقي الكبير روسيني الذي قابله عام ١٨٢٢ بعد جولة له في العاصمة النمسـاوية حقق خلالها نجاحًا كبيرًا، قـد يكون تلك المرة بسـبب أن بيتـهوفن لم يكن يقـدر كـثيـرا الأوبرا الإيطالية.

كانت جيرتي تعد مقـالاً عن ذلك، وقـد قـررت أن تذهب إلى فيينا قريبًا لجمع المواد اللازمة للبحث.

ثم عـادت جيـرتي للحديث عن جـوزفين فـون برونسيك التي تزوجت ديم، وكانت الشـائعات تدور عن علاقتها الحميمة بالموسيقار.

بعد وفاة زوجها عام ١٨٠٤ عهدت بأولادها إلى شقيقتها تريزا وقضت فترة في صحبة الموسيقار، وقد حملت، وبعد تسعة أشهر ولدت طفلة أطلقت عليها اسم مينورا، ولم تتضح قط الحقيقة عن والدها.

لم يشأ إدواردو أن يعارض جيرتي عن أصل سيمفونية «في ضوء القمر»، وقد تذكر رحلة قام بها إلى دبلن في مناسبة مهرجان سينمائي وتعرف من خلالها على مؤرخ أيرلندي للسينما الصامتة، والذي عمل لمدة طويلة بالأرشيف السينمائي في لندن.

وقد أهدى الأرشيف الخاص به من المواد الثمينة من الأفلام والصور والببلوجرافيا عن السينما الأيرلندية إلى المكتبة القومية لأيرلاندا، والتي وضعت بشكل مؤقت في سراديب المكتبة نفسها، حيث كان ذلك السيد العجوز يقضي جزءًا كبيرًا من يومه، وقد تحدث معه إدواردو طويلاً عن السينما والأدب الأيرلندي، كما تحدث معه عن السينما والأدب عمومًا، وكانا متفقين على أنه إذا كان الأدباء والشعراء الكبار في أيرلاندا في القرن العشرين من أمثال جيمس جويس ووليام بتلر ياتس وصموئيل بكيت وجون سينج سين أوكازي، قد قدموا للعالم صورة لأيرلاندا أو للرومانسية الشرقية، وفي بعض الأحيان كان ذلك في علاقة صوفية أو عاطفية، فإن أيرلاندا التي تخرجها السينما كانت أكثر غضبًا وعنفًا.

وليام – وكان ذلك اسمه عند التعميد – كان ينفعل في أثناء حديثه عن المخرجين والأفلام الذين دخلوا تاريخ السينما، مثل: جون فورد في

فيلم "المخبر" أو " بلوج" أو " النجوم" أو " الرجل الهادئ" أو "ابنة راين" لدافيد لين.

وبالنسبة إلى السينما الصامتة، فكان يعتبر نفسه من المحظوظين لأنه شاهد كل الأفلام التي كانت تنتج في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وبلاد أخرى كثيرة دون أي مشكلة، حيث إنه لم يكن هناك حاجز اللغة.

شاهد كثيراً من الأفلام ولم يكن يتخيل أن يأتي اليوم الذي يفوز فيه فيلم أيرلندي بجائزة الأوسكار. وفي ذلك اليوم أراد ليام اصطحاب إدواردو إلى مخازن المكتبة القومية في تلك الظهيرة، وهناك قدم له شاباً حلو الملامح ذا عينين حزينتين، كان يعيد ترتيب أفلام ووثائق وأيضًا بوسترات وقطع من الجرائد ويلصقها الواحدة بجوار الأخرى فوق أوراق بيضاء.

وليام الذي كان يمشي وهو يجر قدميه وقد فهم شغف إدواردو بفن الأوبرا، أظهر له فيلمًا كان يعتبره قطعة فنية نادرة، وكان نسخة من فيلم يعود إلى عام ١٩٢٠، ولم تخنه الذاكرة، لقد كان عن سيمفونية «ضوء القمر» لبيتهوفن.

كانت لقطات سريعة يتذكرها إدواردو جيداً. في المشهد الأول كان يظهر بيتهوفن وصديق له وكان يرتدي قبعة، يسيران في طريق شجر وإحدى الغابات.

تصل إلى أذنيهما موسيقى من إحدى النوافذ.. يجتذب صوت الموسيقى بيتهوفن.. يقترب الاثنان من النافذة ويستمعان لصوت امرأة.

تشتكي لأنها لا تستطيع أداء قطعة بيتهوفن كما ينبغي، ثم يتوقف صوت الموسيقى ويسمع من جديد صوت المرأة الشابة التي تتحدث عن رغبتها في حضور حفل موسيقي لبيتهوفن في كولونيا، فيرد الأخ قائلاً : إنهما من الفقر حيث لا يملكان دفع إيجار المنزل. عند ذلك يطرق بيتهوفن الباب على الرغم من معارضة صديقه ويعرب للفتاة عن رغبته في عزف المقطوعة التي سمعها، وعندئذٍ يدرك أن الفتاة كفيفة وتعزف دون نوتة موسيقية. يجلس بيتهوفن إلى البيانو ويرتجل سيمفونية «في ضوء القمر» ويستوحي واحدة من الأساطير الكثيرة التي تحدثت عن هذه السيمفونية، إلا أنها واحدة من الحكايات التي تعجب إدواردو بصفة كثيرة.

الفصل السادس والعشرون

وفي عشية ليلة ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦، لم تنم بترا لأنها في اليوم التالي كانت ستقابل تيبور، كان تيبور يدرس معها في المدرسة الثانوية، إلا أنه يسبقها في العمر، وكان قد حصل في ذلك العام على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وكان يتخذ بالفعل مظهر الطالب الجامعي، وقد سجل بالفعل في كلية الطب، فقد كان يريد أن يحنو حذو والده الجراح الكبير بالمستشفى الرئيسي في بودابست. أما الجد فقد كان من الرسامين المشهورين، والذى تشغل لوحاته صالة كاملة بالجاليري القومي.

وفي تلك الظهيرة، اعتذرت بترا عن درس البيانو لتحضر حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها، وقد دعى أيضًا تيبور إلى الحفل نفسه. تيبور كان شابًا طويل القامة، أشقر، تسقط فوق جبهته خصلة شعر متمردة تنحدر دائمًا فوق جبهته ويزيحها كل حين بيده. كانت يداه نحيلتين وعيناه كستنائيتي اللون. وبعد أن غسلت شعرها استغرقت وقتًا طويلاً في تصفيفه وهى تفكر في تيبور، وإن كان سيأتي وحده أم سيصطحب معه إحدى فتيات المدرسة الثانوية اللاتى يلهثن خلفه.

كانت بترا قد ذاقت حلاوة القبل في حياتها مرة واحدة في غابة نومافو. عندما ذهبت في رحلة مع فصل حصة النباتات؛ وقامت بذلك كلعبة كي لا تسخر منها الطالبات الأخريات اللاتي كن يذهبن خلف الأشجار ويتبادلن القبل مع فتيانهن، بينما ذلك المدرس المتزمت كان يقف عند كل شجرة ويسهب في الشرح.

كانت بترا تتمتع بذاكرة فولاذية؛ فقد كان يكفيها قراءة قطعة مرة واحدة فتلتصق بذاكرتها، كما كانت سريعة الحفظ ربما لهذا تم اختيارها لتمثيل دور البطولة في مسرحية خريجي المدرسة الثانوية في نهاية العام، فقامت بدور البطولة على الرغم من أنها كانت لا تزال في الصف الثاني، وقد اختارت المدرسة تلك المسرحية لأنها تذكرها بطفولتها في قرية بعيدة بجنوب المجر. كان عنوان المسرحية «المعلمة الشابة»، من تأليف ساندرو برودي المعروف بأنه من بدأ المذهب الطبيعي في الأدب المجري في تلك الأعوام.

كانت المدرسة في المسرحية تدعى فلورا.. كان ذلك الاسم يعجب بترا كثيراً. تذكر أنها في أثناء درس اللغة اللاتينية قامت المدرسة بشرح أصل ذلك الاسم، وأنه كان يعبر عن اسم إله الزهور، إله الحدائق والربيع، تقام باسمه الاحتفالات الكبيرة في روما بين نهاية أبريل وبداية مايو؛ وقد سميت هذه الاحتفالات باسم عيد الإله فلورا.

وقد عرضت المسرحية للمرة الأولى عام ١٩٠٩، ونالت نجاحًا كبيراً، وتحكي عن فلورا التي كانت تعيش في بودابست وأرسلت للتدريس في إحدى المدارس القروية البعيدة.

كانت فتاة ذكية رائعة الجمال، أشعل وصولها إلى القرية الرغبة في قلوب الرجال والحسد في نفوس النساء. ثم طلب يدها للزواج ابن أثرى رجال القرية، الفتى الذي تتنافس عليه جميع الفتيات. تنتهي المسرحية بترك فلورا للقرية التي لم تستطع قط التأقلم على الحياة فيها.

كان تيبور يقوم بدور البطولة أمامها ويلعب دور ابن الثري، وقد أدت بترا دورها ببراعة مشددة على كلماتها في أثناء حديثها إلى تيبور:

«لا تدرى ماذا يحدث لفتاة شابة عندما تشعر بإعجاب حقيقي نحو أحد الشباب للمرة الأولى.. يتحول الفراش إلى لهب، تحلم بعينين مفتوحتين ويجافي النوم عينيها، تشتعل روحها ولا تدري ما يحل بها بالضبط، ترتكب أخطاء في العمل، لا تستطيع تصحيح الأخطاء التي يقوم بها الطلبة في دفاترهم. كما لو أن شجرة حور فارعة قد غرّست في طريقك، أود كثيراً إزالة العائق وإزاحة تلك الشجرة، ولكن فجأة لا أدري كيف ولماذا أجد نفسي أحتضن جذعها القوي ولا أرغب في شيء مثل بقائي بين هاتين الذراعين.. ماذا تريد أن تعرف عن الفتاة عندما تحب؟».

فى ظهيرة ذلك اليوم قطعت بترا جزءًا طويلاً من نهر الدانوب سيراً على الأقدام لتتوجه بعد ذلك إلى ميدان كالفين، حيث أعطت موعداً لصديقتها تيميا. لاحظت تجمع عدد كبير من الناس، خصوصًا من الشباب الذين تجمعوا في مجموعات كانت تسير كلها في الاتجاه نفسه.

وفي ذلك اليوم توسلت إليها الأم ألاّ تذهب، حيث قد تم الإعلان عن مظاهرة ضخمة بالقرب من المكان الذاهبة إليه. ولكن بترا صممت على الذهاب، مطمئنة أمها بأنها ستنتبه للأمر وأنها لن تصاب بمكروه. وقد قطعت مع صديقتها تيميا مسافة قليلة من متحف كروت ثم صعدتا إلى الطابق الثاني لتلك البناية ذات الواجهة المزينة. وكانت أمام طريق برودي ساندور، الشارع الذي سمي على اسم مؤلف المسرحية التي كانت تقوم ببطولتها أمام تيبور. وكان الشارع مثل شوارع أخرى في بودابست قد تغير اسمه منذ فترة قليلة، قبل ذلك كان يسمى ببساطة ساندور أوكتا، شارع أليساندرو.

وبينما كانت بترا تتخذ طريقها بين الجمع الغفير تذكرت عبارة من تلك المسرحية التي كانت تبدو كئيبة: الموت ليس حزينًا، ببساطة هو قاسٍ، الموت جزء من الحياة، لذا لا أخافه. لا يدري أحد لماذا في هذه اللحظة السعيدة تفكر في الموت؟! وفي حين كانت تحاول أن تفكر في شيء آخر، رأت تيميا واقفة تنتظرها أمام عمود إنارة، سارتا معًا تتحدثان عن الجلبة والضجة حولهما، ومشيا بطول الطريق الرئيسي كوروت. وعند دخولهما من السلم كانتا تستطيعان سماع الموسيقى المقبلة من الأسطوانات. كان باب الشقة مفتوحًا، وكان بالإمكان رؤية اثنين يرقصان، بينما كان هناك شابان يتناقشان فوق السلم حول ما إن كانا سيبقيان أو سيذهبان إلى الشارع. لم يكن تيبور قد وصل بعد، وظنت بترا أنه لن يأتي، وأنه ربما فضل الذهاب خلف جموع المتظاهرين.

إلاّ أنه ظهر بعد قليل يلهث بالباب. قبّل وجنتيها ودعاها فوراً إلى الرقص.. شعرت بترا بتلاحق دقات قلبها، وبأنها لم تشعر بمثل هذه السعادة من قبل . رقصا وقد التصق جسدهما في صمت بجوار النافذة المفتوحة التي تطل على الشارع الواسع.. وعند لحظة معينة سمع صوت طلقات يأتي من الشارع، وبعد لحظة سقطت بترا بين ذراع تيبور، فقد أصابتها رصاصة طائشة وصرعتها في الحال.. ساد الغرفة الرعب والهلع، بينما واصل الجراموفون عزف الموسيقى.

في تلك الليلة، اتخذت المجموعة عهداً دون تردد، كان اتفاق على الحياة أو الموت.. سارعوا إلى مبنى الراديو. وكانت هناك فتاة من فوق سطح إحدى عربات النقل معها ما يشبه البيان، وبعد قليل أخذوا الأسلحة من إحدى عربات النقل المقبلة من قسم البوليس؛ بعد أن استولى الثوار على أسلحتهم وبدأت المعركة.

شاهد تيبور وصول الدبابات الروسية التي أحاطت بمبنى الراديو وبدأ الثوار في الاختباء. قرروا الاختباء بمكتبة المعهد بالدور العلوي، وفي أثناء الانتظار كتب كل منهم ما يشبه الوصية، وقد قاموا بدسها بين صفحات كتب المكتبة .. حيث يجدونها في حالة موتهم. كانت تمثل بعض الخواطر عن عدالة قضيتهم وعن تحرير المجر الواقعة تحت نير الظلم. تيبور كتب خطاباً لوالدته التي كانت تعيش لحظات صعبة وقد وجد الخطاب بعد ذلك بسنوات كثيرة بمكتبة المعهد:

«والدتي الحبيبة، قضيت الليلة بطولها مع رفقائي، نحارب في شوارع الحي الثامن بجوار مبنى الإذاعة، يتملكني غضب جامح يصعد

من أحشائي بعد أن ماتت بترا، الفتاة التي حدثتك عنها كثيراً بين ذراعي بعد إصابتها بطلقة طائشة في بيت جورجيو. إن موت بترا بالنسبة إليَّ بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد انضممت إلى المقاومة من أجلك، من أجلي، من أجلنا جميعًا. أتمنى أن نستمر. سأحاول العودة إلى المنزل قريباً، وإذا حدث لي شيء، وقدر لي ألاّ أعود، فاعلمي أنني أحببتك كثيراً، وأنني مت من أجل قضية عادلة. أحضاني».

حكى تيبور عن تلك الواقعة في مؤتمر المعهد: «هربت من بيت لآخر ومن سرداب لآخر.. عبرت وسط المدينة، حيث انتظرت وصول عربة نقل لعبور جسر مارجريتا. ومن هناك نجحتُ في الوصول سيرًا على الأقدام بين أحياء تعج بالمتظاهرين وأحياء خلت من سكانها إلى البيت، وهناك كان مصدر الأخبار الوحيد جهاز الراديو الذي تجمعنا حوله».

وقد تكونت مجموعات من الثوار التي واصلت الصمود. وقد انتظرت كالمشلول حدوث شيء غير متوقع. وأخيرًا وجه الراديو نداء في ٢٨ أكتوبر، فقد تكون الحرس الوطني وكان يطالب بمتطوعين. كانت العليا لفن الديور تنظم فرقًا للحرس الوطني المستقل وأصبحت قائد الوحدة.

وقد قمنا بعمل الدوريات للمنطقة الواقعة حول التلال طبقًا للنظم العسكرية. كنا نتلقى التعليمات والأوامر والبطاقات العسكرية من بال مارتير وبيلا كيرليمن بمعسكر كيليان. كان من المطمئن لنا معرفة أننا نستطيع عمل ذلك من أجل حفظ النظام. نجحت في تحرير أخي تامس

من الحبس الاحتياطي ورده إلى أمي التي كانت قد فقدت كل أمل.

كانت تتأجج الخطط السياسية وكانت السياسة العسكرية تنسج خيوط المعاهدات السرية. وبينما كانت أوروبا تحثنا على المقاومة والصمود، بدأ السوفييت في التحرك. وصلت الدبابات وقوات التحرير ومعهم أشخاص ظهروا من تحت الأرض وصدر إنذار بتسليم الأسلحة.

عندما وصل ذلك الخبر إلى فرقتي بين أشجار الحديقة العامة كنا نجهش بالبكاء بالفعل.

كانت أمي في ذلك الوقت تدير دار حضانة خاصة بأطفال العاملين بمستشفى الأمراض العقلية ليتوميزو، وبذلك نجحت في إدخالي المستشفى، وقضيت شهوراً طويلة بين المجانين هرباً من الموجات الأولى للقبض على الثوار التي كانت غير منظمة، ثم أصبحت تستهدف أناساً بعينهم، كان لديَّ كل بطاقات ٥٦، كل صفحات الجرائد وما سجلته من مذكرات. عندما خرجت لم أعثر لها على أثر. فقط بعد مرور خمسة وثلاثين عامًا تلقيت خطابًا رسميًا من المستشفى يحوى كل أوراقي التي خبأها مريض عقلي مات عجوزًا.. وقد شعرت بإحساس غريب عند عودة كل هذه الأوراق إليَّ.

تأثر إدواردو كثيراً بسماع شهادة ذلك الرجل وسجلها بالكامل. كانت عيناه وقد وهن عظمه وكبرت سنه، تشيان بمشاعر الغضب لتلك الأيام الحزينة، وقد بدت له كل هذه التضحيات دون جدوى حقيقية.

الفصل السابع والعشرون

كان الجليد قد عاد يتساقط، وابتلت الشوارع، وعلى الرغم من أن إدواردو قد وضع مساحات الزجاج على السرعة النهائية، فإنه كان لا يستطيع الرؤية جيداً، فالجليد كان يتساقط بغزارة، ومن الزجاج كان يرى بنايات مرتفعة لحي متوسط شعبي، وقد اقترب كثيراً من الزجاج حتى ألصق به أنفه ليرى جيداً، فقد كان الزجاج قد تعكر تمامًا من الداخل، وكان صوت مروحة الهواء التي أشعلها على آخر سرعة يحدث فقط ضجيجاً مرتفعاً دون أي حل لمشكلة الرؤية.

وإن كان في تلك المرة على غير عادته، كان قد درس الخريطة بكل تفاصيلها الدقيقة وخط باللون الأصفر الطريق الذي ينبغي السير به.. إلا أنه الآن لا يستطيع حتى قراءة اسماء الشوارع، وقد تاه في متاهة داليدوس وتلك الميادين التي تشبه لعبة البازل. وعند نقطة معينة وقد نفد صبره، نزل من العربة ليقرأ اسم الشارع الذي يوجد به. نزل دون أن يرتدي سترته، وقد سرى البرد في كل أوصاله. لعن نفسه لأنه لم يشحن بطارية الموبايل، على الأقل كان يمكنه الاتصال بماجدة ليطلب منها إرشاده، فهي تعلم جيداً هذه المنطقة، وإن كانت لا تقطن بها.

ربما تعمد أن يتوه لرغبة في اللا وعي، وذلك الجليد الذي يتساقط بغزارة كان يذكره بسنوات طفولته البعيدة وأيام الإجازات في أعياد الميلاد بين الأطلال القديمة لتشيفيتا فكيا فى أربينو عندما كان يلهو ويركض سعيداً والبرد يغزو أوصاله، بينما الجليد يغطي كل ما حوله. الآن يبدو له أن ذلك الجليد يكاد يغطي ذكرياته ويعيد صفاء منسيًا إلى الأشياء والمشاعر. لماذا كان يذهب للقاء ماجدة؟ هل فقط لرؤية الأعمال التي – على حد قولها – في غاية الحسية والتى استوحتها من اللوحات الزيتية لتيكي؟ أم لرؤية جيرتي التي دعته خصيصاً لتلك المناسبة؟

صعد إدواردو إلى العربة وبقي للحظات ساكن العقل والجسد، ثم خرج من السيارة، أزاح بعناية ذلك الجليد المتراكم فوق الزجاج وأضاء المصابيح. استدار بالعربة وعاد بتمهل فى الاتجاه الذى جاء منه. لفه ظلام الليل وشعر بشغف نحو شيء يستعر داخله قلق يحرك أفكاره ، أشخاص، مشاهد خالدة، رؤي خافتة، أصداء قصص عاشها واستمع إليها فى المقهى المجرى. كانت تتلاحق مثل ضجيج يملأ رأسه. جبل من الكتب والأوراق ودفاتر الملاحظات تقبع فوق مكتبه وتنتظره بصبر نافذ.

اقتنع إدواردو شيئا فشيئا.. إنه لم يكن ليسترجع تلك اللحظات الساحرة، وتلك المشاعر المستعرة الفائتة مع ماجدة أو جيرتى أو مع أى امرأة أخرى.. ربما الكتابة وحدها هى القادرة على صنع المعجزة، على محو الزمن والمسافات التى غطتها التجاعيد التى خلوتها تلك السنين بلا هوادة.

المؤلف في سطور:

دانتي ماريانانتشي

كاتب وشاعر إيطالي معاصر، عمل ملحقًا ثقافيًا وأسس وأدار مجلات ثقافية متعددة، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية، له العديد من المجموعات الشعرية وأربع روايات. عمل مستشارا ثقافيا ومديرا للمعهد الثقافى الإيطالى بالقاهرة فى الفترة من ٢٠١١ إلى ٢٠١٢.

المترجمان فى سطور:

نجلاء والي

- حاصلة على دكتوراه في اللغة الإيطالية بدرجة مرتبة الشرف الأولى من كلية الألسن -جامعة عين شمس.

- صدر لها العديد من الترجمات من أهمها: حكايات كالفينو لايتالو كالفينو، وابتسامة البحار المجهول لفينشينسو كونصلو، وجزر النعيم لكلاوديو باتشيفيكو، وحياة ماريانا أوكريا لداتشيا ماراييني.

حسين محمود

- أستاذ اللغة الإيطالية ورئيس قسمها بكلية الآداب، جامعة حلوان.

- ناقد أدبي لمجلات عربية ومصرية (مقالات نقدية حول الأدبين العربي والعالمي).

صحفي حر، وعضو هيئة تحرير ببليوجرافيا الأدب الإيطالي العالمية - دار نشر ساليرنو - روما.

له أعمال عديدة بالعربية والإيطالية منها: "صورة محمد في الإعلام الإيطالي"، و"موقف النقد الأدبي العربي من إبداع الكاتبات اليمنيات"،

و"التأثير الثقافي للأدب الإيطالي على الأدب العربي" و"الكتاب المهاجرون العرب في إيطاليـا".

ومن ترجمـاته إلى اللغـة العربيـة: "السـيدة لا تصلح إلا للرمي - داريو.فو"، و"الإسلام، ذلك المجهول في الغرب - ريتا دي ميليو"، "يسوع الناصري - جوزيف راتزنجر"، و"محادثة في صقلية - إليو فيتوريني"، و"الدمعة الأخيرة - ستفانو بيني".

التصحيح اللغـوي : كـريمان البـدرى

الإشـــراف الفنـــي : حـــسن كـــامل



نتلمس فى هذه الرواية روح ثورة المجر التى اندلعت
عام 1956، من خلال رواية الصحفى إدواردو ليمانتى
الإيطالى ذى الأصول المجرية والمقيم فى بوادبست.
وتقدم الرواية نموذجًا إنسانيًا للثورات، وكيف تجسد
هذه الثورات أحلام وإحباطات الشعوب التى تقوم بها
وتهتم بتقييم وتحليل النتائج التى ترتبت عليها بعد
مرور سنين عديدة من قيامها.

تصميم الغلاف: أيمن أمين